ودائع المعاني في خبايا المباني

قراءة أخرى لقصيدة المتنبي

(عيد بأية حال عدت يا عيد)

إعداد

الأستاذ الدكتور

سعيد أحمد جمعة

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالسادات

١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

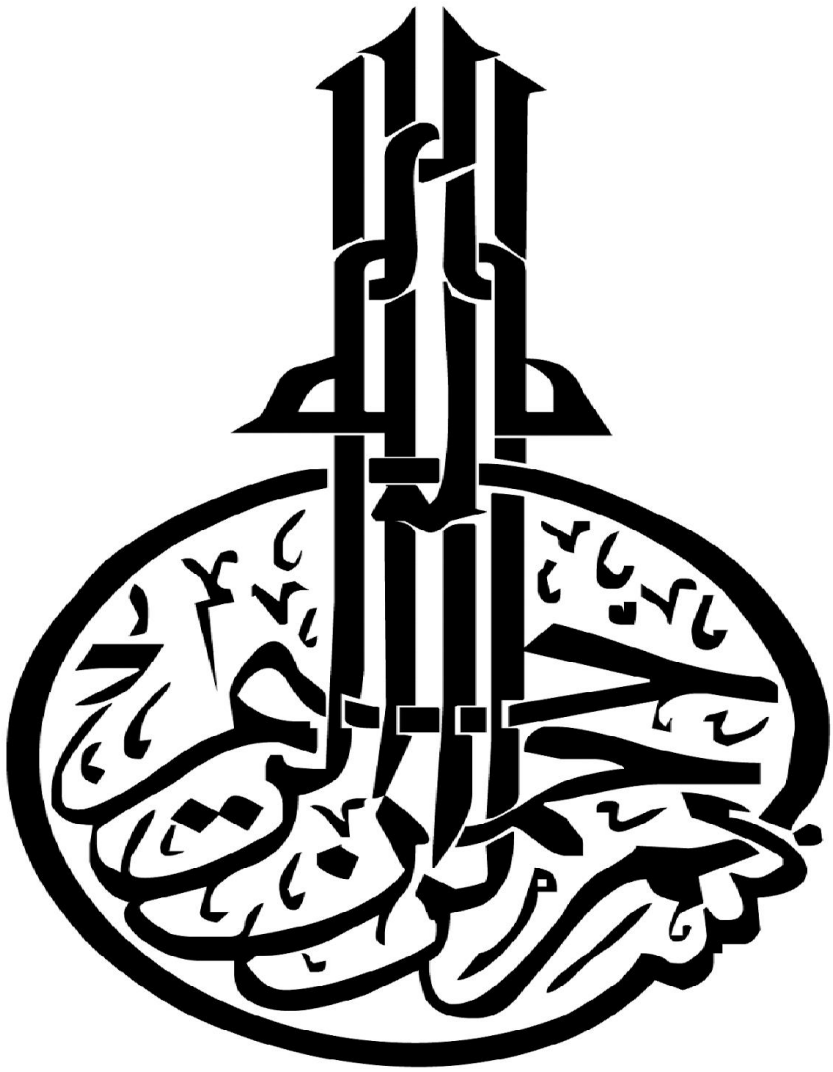

ودائع المعاني في خبايا المباني

"قراءة أخرى لقصيدة المتنبي"

(عيد بأية حال عدت يا عيد)

سعيد أحمد السيد جمعة

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر، مدينة السادات جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: islam.sa.g.dean@azhar.edu.eg

ملخص البحث

هذا البحث يحاول أن يدخل إلى نفس المتنبي ليعرف الأسباب التي دفعته إلى هجاء كافور بهذه القسوة، وأودع هجاءه في قصيدة شعرية خالدة، وأثبت البحث من خلال المنهج التحليلي أن هذه القصيدة عتاب لسيف الدولة الذي يحبه ، لكنه تركه فريسة للسفلة من الأمراء الذين لا يستحقون هذه المنزلة فأهانوه ، وحجزوه ، وهذا لا يليق بمثله.

وقد خلصت إلى النتائج الآتية: أن تحليل النصوص الشعرية مرتبط ارتباطًا وثيقا بمعرفة البيئة التي نبتت فيها هذه القصيدة؛ لأن كل لفظة، وكل حركة في النص الشعري، هي وليدة النفوس المجتمعة في الزمان الخاص، والمكان الخاص، والأحوال الخاصة، وفصل القصيدة عن هذه الأحوال يُعدّ قتلًا للمعاني التي حملتها، وتشويهًا للدلالات التي تسربت في أعطافها.

أن تحليل النصوص لون من الإبداع الذي يتطلب مشاركة الشاعر في كل شيء، مشاركته في تجربته، في زمانه ومكانه، في أحواله التي ألمت به حتى تستطيع أن تقتحم حماه، وتستخلص مراده من كلامه، وللشعراء حمى لا يسمحون لأحد بالاقتراب منه إلا لمن أذنوا له، ولا يأذنون إلا لمن عاش معهم، واستأذن منهم، وسمع شكواهم، والتمس لهم الأعذار فيما قالوه،

وعندها يألفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، وعندها فقط يسمحون له أن يسكن نفوسهم ليتعرف على مرادهم، وكل ذلك يكون بمداومة قراءة شعرهم، والتغني به تغني المحب العاشق.

الكلمات المفتاحية: ودائع – المعاني – خبايا – المباني – المتنبي.

Deposits of meanings in the secrets of structures Another reading of Al-Mutanabbi's poem (O Eid anyway, you're back again, O Eid)

Said Ahmed El Sayed Gomaa
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Sadat City, Arab Republic of Egypt.
islam.sa.g.dean@azhar.edu.eg

Research Summary

This research tries to dive into the soul of Al-Mutanabbi to know the reasons that led him to satire Kafour so harshly, and wrote down his satire in an everlasting poetic poem. The research proved, through the analytical method, that this poem is a reproach to Saif Al-Dawla, who loves him. But he left him as a prey to the inferior princes who do not deserve this position, so they insulted him and imprisoned him, and this is not worthy of someone like him.

It came to the following results:The analysis of poetic texts is closely related to the knowledge of the environment in which this poem was written; Because every word, and every movement in the poetic text, is the product of the souls gathered in a special time, a special place, and special conditions, so separating the poem from these conditions is considered as killing of the meanings it carried, and a distortion of the connotations that leaked in its folds.

The analysis of texts is a form of creativity that requires to participate the poet in everything, to participate him in his experience, in his time and place, in his conditions that befell him so that you can invade his sanctuary and extract the meaning from his words. In fact, poets have their own sanctuaries that they do not allow anyone to

approach them except for those who are permitted to do so. However, they do not give permission except to those who lived with them, and sought permission from them, heard their complaints, and sought excuses for what they said, and then he familiarizes them and they became familiar with him, so he loves them and they love him. Then they only allow him to accompany their souls to know what they want. All of that can be done by constant reading of their poetry, and singing it the case with the sweet hearted lover's singing.

Keywords: deposits -meanings -secrets -structures - Mutanabi

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ،وعلى آله وصحبه ومن والاه،

أما بعد:

فقد رزقت مخادنة كافورية المتنبي الدالية، التي نظمها سنة ثلاثمائة وخمسين من الهجرة، قبل هربه من مصر بيوم واحد، يوم عيد الفطر، وقد استغرقتني زمنًا طويلاً، أعاود قراءتها مرة بعد أخرى، حتى خرجت في هذا الشكل التحليلي الذي أرجو أن يكون فيه إضافة، وفيه نفع، وأن نخرج منها بدلالات وإجراءات تنير الطريق في سبيل قراءة النص الشعري العالي مثل هذا النص، الذي كثرت حوله القراءات وتنوعت، ولعل قراءتي هذه تكون جديدة وطريفة ومغايرة، وتحظى بتلق طيب من قبل شيوخي وزملائي وطلابي.

وقد قمت بصياغتها في قالب أكاديمي مكون من مبحثين، هما:

المبحث الأول: تاريخ النص وباعث إبداعه

المبحث الثاني: تحليل النص فنيًّا وبلاغيًّا

وأرجو أن أكون وفقت في كل تعليق وتحليل واستنباط، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول

تاريخ النص وباعث إبداعه

في هذا المبحث نقدم الجو التاريخي الذي أبدع فيه النص، لنكتشف الباعث على إبداعه، والغرض الرئيس منه، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: تاريخ النص وتوثيقه

إن تحليل النصوص الشعرية مرتبط ارتباطًا وثيقا بمعرفة البيئة التي نبتت فيها هذه القصيدة؛ لأن كل لفظة، وكل حركة في النص الشعري، هي وليدة النفوس المجتمعة في الزمان الخاص، والمكان الخاص، والأحوال الخاصة...، وفصل القصيدة عن هذه الأحوال يُعدّ قتلًا للمعاني التي حملتها، وتشويهًا للدلالات التي تسربت في أعطافها، ولذلك كان من الضروري قبل تحليل قصيدة المتنبي **(عيد بأية حال عدت ياعيد)** أن نقف وقفة سريعة على هذه المقام الذي قيلت فيه[١].

كان المتنبي أحد أشهر شعراء العرب، وقد لازم سيف الدولة الحمداني في حلب سنوات طويلة، وكان سيف الدولة يغدق عليه العطاء، فكتب فيه عددًا من أفضل قصائده في المدح، وفي أحد الأيام وقع خلاف بين المتنبي وابن

(١) البداية والنهاية لابن كثير، وانظر موقع : قصة الإسلام (الصفحة التاريخ الإسلامي دون تشويه) بحث بعنوان: (كافور الإخشيدي بين هجاء المتنبي وحقيقة التاريخ) للباحث: محمد بن علي بنان الغامدي.

خالويه النحوي[١] أثناء تواجدهما في مجلس سيف الدولة، فقام ابن خالويه وضرب المتنبي في وجهه بمفتاح كان يُمسكه في يده فشق وجهه، ولم يتدخل سيف الدولة للدفاع عن المتنبي، فشعر بالغضب وخرج من مجلس سيف الدولة، واتجه نحو دمشق، وظل هناك حتى وصلته دعوة من كافور الإخشيدي حاكم مصر[٢]، وكان كافور من رقيق الحبشة الذين اشتراهم محمد بن طغج، مؤسس الأسرة الإخشيدية، وكان مخصيًّا، أسود اللون، ولم يكن على سواده وسيمًا، لكنه تعلم، وأخلص لسيده في جميع شؤنه فرشحه ضابطًا في الجيش، وخاض عدة معارك أثبت فيها كفاءته، فجعله قائدًا للجند، وحين تُوفي محمد بن طغج، ترك أولادًا صغارًا، فأصبح كافور وصيًّا على العرش، وأصبح بذكائه وحسن تصرفه الحاكم الفعلي لمصر، وعلى الرغم من عدله واعتداله إلا أن شهرته ارتبطت بالقصائد الساخرة الموجهة

---

(١) ابن خالويه هو الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله: لغويّ، من كبار النحاة. أصله من همذان. زار اليمن وأقام بذمار، مدة، وانتقل إلى الشام فاستوطن حلب. وعظمت بها شهرته، فأحله بنو حمدان منزلة رفيعة. وكانت له مع المتنبي مجالس ومباحث عند سيف الدولة. وعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده. وتوفي في حلب. ومن كتبه (شرح مقصورة ابن دريد– خ) و(مختصر في شواذ القرآن– ط) و(إعراب ثلاثين سورة من القرآن العزيز– ط) و (ليس في كلام العرب– ط) . الأعلام للزركلي ٢/٢٣١.

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدي، كان عبدا حبشيا اشتراه الإخشيدي ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه، وأعتقه فترقى عنده. وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥) وكان فطنا ذكيا حسن السياسة. بالقاهرة. وقيل: حُمل تابوته إلى القدس فدفن فيها. وكان وزيره ابن الفرات.و كان عجبا في العقل والشجاعة) وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. دار الكتاب العربي ١٩٨٧م.الطبعة: الأولى.تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. والأعلام للزركلي ٥/ ٢١٦

ضده من المتنبي، وحين لجأ إليه المتنبي أكرمه كافور، لكنه لم يكرمه الإكرام الذي يتطلع إليه؛ فالمتنبي كان يتطلع إلى إمارة إحدى الولايات التي تحت يده، لكن كافور أبى عليه، وحدث بينهما جفاء، فمنع كافور عنه العطاء، ولم يأذن له في الخروج من مصر، وأمر عماله أن يتحفظوا عليه، ويراقبوه حتى لا يخرج من مصر، فظل المتنبي كأنه حبيس بها، ولما ضاق به الحال عزم على الرحيل، فأعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام بلطف ورفق، وأظهر لمن حوله الرغبة في المقام، ولما طال على المراقبين التحفظ والمراقبة، حمل المتنبي ليلا الماء على الإبل، وأعد زادًا يكفيه عشرين يومًا، حتى جاءت ليلة العيد، وكان كافور معتادًا أن يخرج في هذه الليلة ليوزع الأعطيات على الناس، ويغدق على المحاويج والمساكين، وفي هذه المعمعة بدأ المتنبي يرسل رحله وبعرانه إلى خارج البلاد، ثم فر ليلة العيد، فأدركه العيد وهو في الصحراء منغصًا مكمود القلب؛ لأنه خرج هاربًا، ولم ينل ما كان يريده، وساعتها قال هذه القصيدة[1]، في يوم عرفة من سنة خمسين وثلاثمائة، وذلك قبل مسيره من مصر بيوم واحد. وجاء فيها:

عيدٌ ؟! بأيّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ ؟ بمَا مَضَى ؟ أمْ لأمْرٍ ؟ فيكَ تجْديدُ ؟

أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دونَهُمُ فَلَيْتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ

لَوْلا العُلى لم تجُبْ بي ما أجوبُ وَجْناءُ حَرْفٌ وَلا جَرْداءُ قَيْدودُ

وَكَانَ أطيَبَ مِنْ سَيفي مُعانَقَةً أشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأمَاليدُ

لم يَتْرُكِ الدّهْرُ مِنْ قَلبي وَلا شَيْئاً تُتَيّمُهُ عَينٌ وَلا جِيدُ

يا سَاقِيَيَّ أخَمْرٌ في كُؤوسِكُما أمْ في كُؤوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسهيدُ؟

---

(١) راجع كل ذلك في كتاب : معجز أحمد (شرح لديوان المتنبي)لأحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، التنوخي (المتوفى: ٤٤٩هـ) ٤١٠/١.

أصَـخْرَةٌ أنَـا، مـا لـي لا تُحَرّكُنـي ... هَــذِي المُــدامُ وَلا هَــذي الأغَارِيــدُ
إذا أرَدْتُ كُمَيْـتَ اللّـوْنِ صَـافِيَةً ... وَجَــدْتُهَا وَحَبيــبُ الــنّفسِ مَفقُــودُ
مـاذا لَقيـتُ مـنَ الـدّنْيَا وَأعْجَبُـهُ ... أنــي بمَــا أنَــا شَــاكٍ مِنْــهُ مَحْسُــودُ
أمْسَـيْتُ أرْوَحَ مُثْـرٍ خَازِنـاً وَيَـداً ... أنَــا الغَنــيّ وَأمْــوَالي المَوَاعِيــدُ
إنّــي نَزَلْــتُ بكَــذّابِينَ، ضَـيْفُهُمُ ... عَــنِ القِــرَى وَعَــنِ الترْحــالِ محْــدُودُ
جودُ الرّجالِ من الأيدي وَجُودُهُمُ ... مــنَ اللّســانِ، فَــلا كــانوا وَلا الجُــودُ
مـا يَقـبضُ المَـوْتُ نَفسـاً مـن ... إلاّ وَفــي يَــدِهِ مِــنْ نَتْنِهَــا عُــودُ
من كلّ رخو وكاء البطن منفتقٍ ... لا فــي الرّجــال ولا النّســوان معــدود
أكُلّمَـا اغتَـالَ عَبـدُ السّـوْءِ سَـيّدَهُ ... أوْ خَانَــهُ فَلَــهُ فــي مصــرَ تَمْهِيــدُ
صَـارَ الخَصِـيّ إمَـامَ الآبِقِينَ بِهَـا ... فَــالحُرّ مُسْــتَعْبَدٌ وَالعَبْــدُ مَعْبُــودُ
نَامَتْ نَـوَاطِيرُ مِصرٍ عَنْ ثَعَالِبِها ... فَقَــدْ بَشِــمْنَ وَمــا تَفنــى العَنَاقيــدُ
العَبْـدُ لَـيْسَ لِحُـرٍّ صَـالِحٍ بـأخٍ ... لَــوْ أنّــهُ فــي ثِيَــابِ الحُــرّ مَوْلُــودُ
لا تَشْـتَرِ العَبْـدَ إلاّ وَالعَصَـا مَعَـهُ ... إنّ العَبيــــدَ لأنْجَــــاسٌ مَنَاكِيــــدُ
مـا كُنتُ أحْسَبُني أحْيَا إلى زَمَنٍ ... يُسِــيءُ بــي فيــهِ عَبْــدٌ وَهْــوَ مَحْمُــودُ
ولا تَوَهّمْـتُ أنّ النّـاسَ قَـدْ فُقِـدوا ... وَأنّ مِثْــلَ أبــي البَيْضــاءِ مَوْجــودُ
وَأنّ ذا الأسْـوَدَ المَثْقُـوبَ مَشْـفَرُهُ ... تُطيعُــــهُ ذي العَضَــــاريطُ الرّعاديــــد
جَوْعانُ يأكُلُ مِنْ زادي وَيُمسِكني ... لكَــيْ يُقــالَ عَظــيمُ القَــدرِ مَقْصُــودُ
إنَّ أمــراً أمَــةٌ حُبْلَــى تُــدَبّرُهُ ... لُمستَضَــامٌ سَــخِينُ العَــينِ مَفئُــودُ
وَيْلُمِّهَــا خُطّــةً وَيْلُــمِّ قَابِلِهَــا ... لِمِثْلِهــا خُلِــقَ المَهْرِيّــةُ القُــودُ
وَعِنْـدَها لَـذّ طَعْـمَ المَـوْتِ شَـارِبُهُ ... إنّ المَنِيّــــةَ عِنْــــدَ الــــذّلّ قِنْديــــدُ
مَنْ عَلّمَ الأسْوَدَ المَخصِيّ مكرُمَةً ... أقَوْمُــهُ البِــيضُ أمْ آبَــاؤهُ الصّــيدُ
أمْ أُذْنُــهُ فــي يَـدِ النّخّـاسِ دامِيَـةً ... أمْ قَــدْرُهُ وَهْــوَ بالفِلْسَــينِ مَــرْدودُ

أوْلـــى اللّئَـــامِ كُـــوَيْفِيرٌ بمَعْـــذِرَةٍ فـــي كـــلّ لُـــؤمٍ، وَبَعـــضُ العُـــذرِ تَفنيـــدُ
وَذاكَ أنّ الفُحُـولَ البِـيضَ عـاجِزَةٌ عنِ الجَميلِ فكَيفَ الخِصْيةُ السّودُ؟(١)

=====*****=====

ثانيًا: الباعث على الإبداع:

إن تحليل النصوص لون من الإبداع الذي يتطلب مشاركة الشاعر في كل شيء، مشاركته في تجربته، في زمانه ومكانه، في أحواله التي ألمت به حتى تستطيع أن تقتحم حماه، وتستخلص مراده من كلامه، وللشعراء حمى لا يسمحون لأحد بالاقتراب منه إلا لمن أذنوا له، ولا يأذنون إلا لمن عاش معهم، واستأذن منهم، وسمع شكواهم، والتمس لهم الأعذار فيما قالوه، وعندها يألفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، وعندها فقط يسمحون له أن يسكن نفوسهم ليتعرف على مرادهم، وكل ذلك يكون بمداومة قراءة شعرهم، والتغني به تغني المحب العاشق.

وشاعرنا المتنبي من أشد الشعراء خصوصية، واعتزازا بنفسه، ودفاعًا عن كرامته، ومهاجمة كل غريب يقترب من كبريائه، ويتطاول على عزته...، والشعر جنون.

وحين تنظر في قصيدة المتنبي التي بين يديك، وهي على هذا القدر من الإبداع والتفوق فلا بد أولا أن تبحث عن المحرك الذي أشعل النار في هذه النفس الأبية حتى يقول هذا الشعر الفائق الروعة، ولو أنك جالست القصيدة، وخادنتها، وداومت مصاحبتها لكشفت لك أنها زفرةُ ألمٍ شديدة

---

(١) شرح ديوان المتنبي، مرتبًا على القوافي ترتيبًا ألفبائيًّا، صنعة محمد فوزي حمزة، ص١٠٦-١٠٩، مكتبة الآداب سنة ٢٠١٨م.

الوقع، وصرخة موجوع أصيب في كرامته، حين مُنع من الرحيل، بعدما مُنع من العطاء، ثم رأى الناس يهنئ بعضهم بعضا بمناسبة العيد، ويعجبون لأنه لا يشاركهم فرحة استقبال العيد، وهذا المشهد المركب المتداخل الذي يتكون من هذه الخيوط فجر في شاعرنا هذه القصيدة، وراجع ثانية هذه العناصر التى اجتمعت عليه:

- فراق الأحبة الذين عاش حياة هنيئة معهم، وأقصد هنا: سيف الدولة.
- نفس أبية ترى مكانتها لا تقل عن مكانة الملوك .
- حاكم –في نظر الشاعر– لا يستحق هذه المكانة؛ لأنه عبد أسود خصيّ.
- وهذا الحاكم لا يعرف قدرة، ولا يعطيه ما يطلب.
- أوامر مفروضة عليه بعدم الرحيل، وإلزامه بالبقاء، وإلا تعرض للعقاب .
- ثم أناس من الشعب يحتفلون بالعيد، وينكرون عليه عدم مشاركته لهم بالاحتفال والبهجة بقدوم العيد.

تلك هي البيئة التي تشابكت، والمقام الذي نبتت فيه القصيدة، والعوامل التي روت هذه الشجرة الباسقة، **وأنا هنا لا أزعم بأن المتنبي كان على حق أو على باطل**، إنما أحاول أن أعيش مع الشاعر ظروفه التي يراها هو ليفتح لي باب النظر في شعره، وأعرف لم قال ؟ وما وجه التوخي للفظ دون لفظ، وسبك دون سبك، وصورة دون صورة ؟ ولم بدأ بما بدأ به ؟ ولم ختم بما ختم به ... إلخ.

إنني هنا في عالم الشاعر مهما كان عالمه منصفًا أو متجنيًّا، عادلاً أو ظالمًا، وفهم **الشعر ينبغي أن يكون بمعزل عن كل شيء إلا الشعر**.

ثالثًا/ الغرض من النص:

شاع في كتب الأدب أن هذه القصيدة قالها المتنبي في هجاء كافور الأخشيدي، لكنني بعد مصاحبة القصيدة والإلحاح عليها وجدت أن المتنبي جعل هجاء كافور مبالغة في عتابه لحبيبه سيف الدولة، هذا الذي فارقه، ويوم فارقه قال فيه:

فراقٌ ومن فارقت غير مذمم ∴ وأمّ ومن يمّمتُ خير ميمّم

فالمتنبي يعرف أقدار الرجال، وما يستوي عنده البحران، لذلك تجد القصيدة في عتاب حبيبه سيف الدولة الذي تركه يرحل، ويصل به الأمر إلى أن يستجدى العبيد المناكير، ويلجأ إلى عبدٍ صار – في غيبة عقل الناس– أميرًا.

ولا تنس أن هناك معارك حدثت بين سيف الدولة وكافور الأخشيدي في بلاد الشام، مثل حمص وحلب كما ذكر ابن خلدون في تاريخه(١).

فالقصيدة إذن في عتاب (الفحول البيض) التي عجزت عن منحه الجميل، فألجأوه إلى (العبيد، والخصية السود).

وحين تعاتب حبيبك تذكر له ما لاقيته عند الآخرين، وهذا ما فعله المتنبي حين استعرض ما حدث له في رحلته بعيدًا عن سيف الدولة، الذي ذكره في أول القصيدة وآخرها، وجعل كل ما لاقاه جملة معترضة بين جملتين: جملة: **(أما الأحبة فالبيداء دونهم)**، وجملة: **(وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل)**.

فكل ما يحكي عنه المتنبي داخل النص موضوع بين هاتين الجملتين اللتين يعاتب فيهما سيف الدولة، عتابا رقيقا لا تشعر معه إلا بالحب والإجلال،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/٢٣٥.

وفرق كبير عند المتنبي بين أمير وأمير، فرق بين سيف الدولة وكافور الإخشيدي :

فالمتنبي أحب سيف الدولة وما هجاه أبدا، ووصفه في هذا النص بالأحبة، وبالفحول البيض.

كما أنه كره كافور، وما أخلص في مدحه أبدا، حتى إن مدائحه له مبطنة بالهجاء.

المبحث الثاني

تحليل النص فنيًّا وبلاغيًّا

تتكون القصيدة من ثلاثين بيتا، وأول القصيدة هو هذا البيت المشحون بالتهكم، والسخرية والحزن ... إلخ والمعلوم أن مفتتح القصائد عند الشعراء يلقى من العناية والاهتمام ما لا يلقاه جزء آخر في النص، ولذلك أحاول أن أقرأ هذا البيت بما يستحق، يقول المتنبي .

عيد ؟! بأية حال عدت يا عيد؟ .. بما مضى ؟ أم لأمرٍ ؟ فيك تجديد ؟

نعم قل: (عيدٌ) ثم قف، بل قل: عيدٌ ؟ ! بهذا التنغيم الذي يشعر القارئ بأنك تستفهم منكرا، ومتعجبا، وكأنك تقول : أأنت عيد؟ ! أو: أأنت الذي يقولون عنك: عيد ؟!

ثم اسكت سكوتا طويلا، حتى تستقر الجملة في قلوب السامعين، ويعلم المخاطبون أن الكلمة يراد منها هذا الاستفهام التعجبي، ولا تخلط الكلمة بما بعدها وتقول: عيد بأية حال عدت، وكأنه ينادي عليه، فالشاعر لا ينادي على العيد، بل ينكر فرح الناس بالعيد، وينكر طلب الناس منه أن يشاركهم فرحتهم بالعيد، فالكلمة خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا عيد ؟ أو : أهذا عيد ؟! أي: أتعدون هذا اليوم عيدا، رغم الذل والهوان الذي تعيشون فيه ؟ !

يقول أبو العلاء: (عيد: مرفوع؛ لأنه خبر ابتداء محذوف، كأنه جاءه فأنكر مجيئه، فقال له: أنت عيد، كما تقول للرجل إذا لقيته : فلان؛ أي: أنت فلان، ويدل على أنه أنكر لقاءه قوله: بأية حالٍ عدت)[1] إن هذا أمر تنكره النفوس الأبية.

---

(١) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري ١/٤٢١.

وبعد هذه الزفرة التهكمية، يتوجه الشاعر إلى هذا الذي يزعمونه عيدًا، ويسأله: **بأية حال عدت ياعيد ؟.**

وهذه النقلة التي يلتفت فيها من خطابهم متهكما إلى خطاب العيد متهكما أيضا، يسأله فيها وكأنه جرد من العيد شخصًا يكلمه ويقول له: أخبرني بما عدت به، لأن العيد ينبغي أن يعود بالفرح والسرور، فما الذي عدت به ؟

وفرق بين أن تقول : (بأية حال عدت) و(عدت بأية حال)، لأن تقديم شبه الجملة (بأية حال) على الفعل يفيد أن الأعياد أحوال، وليست أيامًا، وحين تكون الأحوال سعيدة فذاك هو العيد، أما أن نترصد يوما ونجعله عيدا رغم الشقاء فهذا عجيب.

وقوله ثانية (يا عيد) دليل على أن لفظة العيد الأولى ليست منادى، وفي النداء هنا مسحة من التهكم لا تخفى، وكأنما أراد: يا من يطلقون عليك عيدا، ولست بعيد.

ثم قال: (بمَا مَضَى ؟ أمْ لأمْرٍ ؟ فيكَ تجْديدُ؟) وهذه ثلاث جمل استفهامية، وجميعها يعمق معنى الإنكار لفرح الناس بالعيد، فالعيد لا يعود عليه ولا عليهم أيضا إلا بالهم والحزن، ومع ذلك يفرحون!

وقول الشاعر (بما مضى؟) رويت (لما مضى؟) والباء تفيد أن العيد يجدد الأحزان التي نتناساها، فيعود بها إلينا، أما اللام فتعني أن العود كان للحزن الذي لا يفارقه منذ عُرف العيد، واللام والباء يصلحان في هذا البيت مكان بعضهما، فيجوز أن تقول: (بأية حال عدت يا عيد؟ بما مضى؟ أم بأمرٍ؟ فيك تجديد؟) ويجوز: (لأية حال عدت يا عيد؟ لما مضى؟ أم لأمر؟ فيك تجديد ؟) والفرق بين التركيبين: أن الباء في كلٍ تعني أن العود بالهم يكون للجميع، للشاعر وللناس، فالعيد يعود بالهم للجميع، أما اللام فتشير إلى أن الحزن الذي عاد به العيد مخصوص للشاعر.

والذي أراه أن الباء أليق بالسياق، لأن المتنبي حين أنكر على الناس الاحتفال بالعيد أراد أنه لا يأتي إلا وهم مغلوبون مقهورون، فكيف تحتفل نفوسهم بالعيد وهي مقهورة مغلوبة؟ !.

ثم قال: أم لأمرٍ ؟ وحَذَفَ وصف الأمر، ليبين مدى بشاعة هذا الأمر الذي عاد له العيد، وكأنه عاد لأمر قتله، أو لسجنه، أو لما هو أشد وأقسى، ولذلك اكتفى بلفظ الأمر، وترك القارئ يتوهمه.

وهنا أيضا ينبغي أن تقرأ: أم لأمر ثم تقف، حتى تكتمل الجملة في عقل السامع، وحتى لا تكون جملة (فيك تجديد) نعتا للنكرة قبلها.

إن التوجس الذي أحاط بالشاعر، وتوقعه لأمورٍ خطيرة من كافور، بعد الحجز والمنع، جعله يبدأ هذه القصيدة بهذه البداية المترعة بالخوف، والحذر، والاستفهام، فليس بعد كل ذلك إلا القتل، لذلك ترك جملة (أم لأمرٍ) مفتوحة الباب لكل تقدير يلحق بها، ولتصور ما يجيش في صدره.

ثم قال: (فيك تجديد؟) وهي جملة استفهامية أخرى والمعنى: هل فيك تجديد؟ وما هو الجديد الذي عندك حتى تعود به؟ أم أنك أردت أن تجدد الأحزان، فتأتي بحزن جديد وهمٍّ جديد، وشيء لم نألفه ولم نعرفه؟ أخبرنا أيها العيد![1].

فالهم هو الهم، والحزن هو الحزن، والنفس في لأوائها تتقلب، ولا جديد، فلماذا تعود؟

هل عندك جديد مثلا عن الأحبة ؟

هل عندك جديد عن الوسائل التي تخرجنا من هذا الحال الذي نعيشة ؟

---

(١) يرى أبو العلاء المعري في شرحه أن المعنى هو: هل عدت بما مضى من حالك، أم فيك تجديد لأمر آخر؟ وأن كلمة (تجديد) مبتدأ، ولأمر خبره، وفيك صفة لأمر. وقيل: تجديد مبتدأ وفيك خبره ولأمر مفعول له. انظر معجز أحمد لأبي العلاء ٤٠٧/١.

وإذا كانت الإجابة أنه لا جديد، فلماذا تعود ؟!

وعلى هذا، فإن البيت الأول حمل أربعة أسئلة، صرح بأداة الاستفهام في واحدة، وحذف الأدوات الثلاث الأخرى، وهذا الزخم في الأسئلة في البيت الأول وتعاقبها، وتلاحقها، يشعرك بأنها أنفاس لاهثة، وعيون تترقب الفرج، ومحاولات لفتح ثغرة في هذا الجدار الذي ضُرب حوله ... إلخ

كل ذلك يشعرك بحالة الاضطراب التي ألمت بالشاعر، وأن الجو الذي أحاط به جو قلق، وخوف من المستقبل، فلا يدري ماذا سيُصنع به، فهو ممنوع من العطاء، وممنوع من السفر، وممنوع من التنقل، وهذا كله فرض عليه غمامة من الكآبة، وسحابة من الحزن ظهرت جلية في هذه الاستفهامات المتلاحقة في مطلع القصيدة.

وراجع ثانية هندسة هذا البيت، لأنني أعتقد أن بناء هذا البيت لا يسطيعه سوى المتنبي، أقول راجع هذا الافتتاح:

عيد ؟!

بأية حال عدت ياعيد ؟

بما مضى ؟

أم بأمر ... ؟

فيك تجديد ؟

وكل واحدة من هذه الجمل استفهام وإنكار ورفض لكل مظاهر الفرح والسعادة.

وكان الاستفهام الأخير (فيك تجديد ؟) مفتاحا لعدة أبيات تعاقبت بعد هذا البيت، وكأنه يستعرض الأمور التي يراها تستحق الاحتفال بالعيد، إن أريد منه الاحتفال، وهذه الأمور تتلخص في عدة أشياء:

أولا: أن يرجع إلى الأحبة، ويقصد بالأحبة هنا سيف الدولة الحمداني.

ثانيا: أن ينال منصبا أو إمارة، وهذا أمر تاقت نفسه إليه، وركب في سبيله ناقته.

ثالثا: أن ينال من لذات الدنيا وشهواتها، وبخاصة لذة التمتع بالغيد الأماليد.

رابعا: أن ينعم بالخمر التي تنسيه متاعبه.

وكل هذه الأمور لم يحظ بواحدة منها عند كافور، وأتي عليها واحدة واحدة، ولما عجز عن إدراك واحدة من هذه الأماني أخذ في هجاء كافور حتى نهاية القصيدة .

وكانت أولى أمنياته لقاء الأحبة فقال:

أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دونَهُمُ ∴ فَلَيتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ

والمتنبي مازال في حضرة العيد، يخاطبه ويخبره بأن أحبته الذين يجعلون للعيد طعما بعيدون جدا عنه، وليت هذا البعد ينتقل إليك أيها العيد، فيصير البعد بعدين.

وأول البيت هو كلمة (أمّا) وهذه الكلمة حرف إخبار مُضمّن معنى الشرط، كأنه قال : إن أردت معرفة حال الأحبة فالبيداء دونهم، وحذف أداة الشرط وفعل الشرط، وجعل كلمة (أما) نائبة عن ذلك كله[1] ومعنى البيداء: الفلاة، وسميت كذلك لأنها تبيد من يحلُ فيها، وكلمة (دونهم) أي حائلة بيني وبينهم، فماذا أصنع بالعيد وهم عني بعيدون ؟ فالسرور يكون مع الأحبة، وحين يبتعد الأحبة فلا سرور، حتى وإن كانت الأيام أيام عيد.

ثم التفت المتنبي إلى العيد يدعو عليه ويقول: (فليت دونك بيدًا دونها بيد)، و(ليت) حرف تمن، تكون في الأمور المستبعدة، وهي عكس (لعل) التي للرجاء، وقدم خبر هذا الحرف، وهو الظرف (دونك) وأضافه إلى كاف الخطاب ثم جاء باسم (ليت) نكرة، ووصف النكرة بجملة مكونة من مبتدأ

(١) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ٨٨/١.

وخبر منزوعة من رحم الجملة السابقة، وكأن البيدَ تتابعت حتى صارت كل بيدٍ دونها بيدٌ تفصله عن العيد، ووجه هذا البعد الذي يتمناه أن العيد صار من بين أعدائه، لأنه يأتيه وهو في حال لا يرى فيه إلا الشقاء، والكاف في (دونك) قد تعود على العيد، وقد تعود على من يحتفلون بالعيد، أما الهاء في (دونها) فترجع إلى البيد التي سبقت، والغرض من هذا الدعاء أن يتبدل الحال، فيقترب أحبته منه، ويتباعد المحتفلون بالعيد عنه، ويصير بينهما من البعد ضعف ما بينه وبين أحبته، والدعاء على العيد إنما هو دعاء على من يحيطون به في أيام العيد، من جند كافور وحاشيته التي تمنعه من الرحيل، لأنه لا معنى للدعاء على العيد حقيقة..... ثم قال:

لَوْلا العُلى لم تجُبْ بي ما أجوبُ بهَا ∴ وَجْنَاءُ حَرْفٌ وَلا جَرْداءُ قَيْدودُ

وكلمة (لولا) حرف امتناع الشيء لوجود غيره، و(العُلى والعلياء والمعالي) كلها ألفاظ تعنى العلو في الأرض باكتساب المناصب أو الأموال أو الذكر الحسن، و(تجُب) أي تقطع الأرض سفرا من جاب المكان يجوبه إذا قطعه، أما (الوجناء) فهي الناقة الشديدة العظيمة الوجنتين، و(الحرف) الضامرة من طول السفر، و(الجرداء القيدود) الفرس الملساء الطويلة، وتوصف الفرس بهذا لكثرة وضع السرج عليها، وسرعتها.. والشاعر هنا يقول لولا ما أطلبه من العلا لم تمض بي في البيداء ناقة على هذه الحال، ولا فرس على هذه الأوصاف، فكل ذلك يعني أن طلب العلا كان رغبة مني في أن أحوز من المناصب ما أستحق، ولولا ذلك لجلست كما يجلس الناس، لكن نفسي العالية تأبى إلا أن تحوز العلى، وفي سبيل ذلك تجشمت ما تجشمت، وما جئت إلا مصر إلا طلبا للعلا، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ومن جميل هذا البيت أن المتنبي جعل القيادة بينه وبين ناقته، فتارة يجوب بها، وتارة تجوب به، وكأنه اتحد معها حتى صارت أخلاقها كأخلاقه،

وحاجاتها كحاجاته، فتارة تقوده، وتارة يقودها، فكلاهما يبغي العلى، وما يقال في الناقة الوجناء يقال في الفرس الجرداء .. ثم قال:

وَكَانَ أطيَبَ مِنْ سَيفي مُعانَقَةً ∴ أشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأمَاليدُ

وهذه الواو التي في أول البيت عطفته على جملة (لولا) في البيت السابق، والرونق هو البياض مع النقاء، والغيد الأماليد: الجواري الناعمات، يريد أنه لولا طلب العلى لفضلت مضاجعة الحسان على مضاجعة السيف، فطلب العلا جعل معانقة السيف أطيب من معانقة الغيد الأماليد.

لكن المتنبي بنى البيت بناء مغايرا، حيث صدّره بالفعل (كان) المعطوف بالواو ليعيد القارئ إلى البيت السابق ليستل منه الجملة التي تصدرت البناء، وهي جملة: (لولا العلى) لأن هذه الجملة لا يجوز تخطيها في بيت أو بيتين، فهي الجملة الرأس في القضية، والجملة الرأس في شعر أبي الطيب كلة، فأبو الطيب طالبٌ للعلى في كل حياته، وفي كل شعره، ومن أجل العلى قال ما قال، ولاقى ما لاقى، وعليه فلا بد أن تستحضر جملة: (لولا العلى) وتقول: ولولا العلى لكان معانقة الغيد أطيب من معانقة السيوف، لكن حاجته إلى العلا عكست الأطايب عنده، وجعلت معانقة السيوف أطيب من معانقة الغيد الأماليد.

وأعود إلى تركيب البيت حيث جعل المعانقة (تمييزا) فقال: (وكان أطيب من سيفي معانقةً أشباه رونقه الغيد الأماليد) فقدم أفعل التفضيل (أطيب) مع متعلقه (من سيفي) وأخر (الغيد الأماليد) لأن المعنى لا يتم إلا بها، ولو أنني رتبت البيت الترتيب الظاهري لجاء هكذا : ولولا العلا لعانقت الغيد الأماليد بدلا من معانقة سيفي، لكن العلا والمجد جعلا معانقة السيف أطيب، والمعانقة هنا تشمل كل مايصاحبها، من صحبة، وطيب حديث، وغزل، ومنادمة، وملازمة بالليل والنهار، وكل ذلك يستحضره القارئ عند

الحديث عن المعانقة، لأنها ختام تلك الرحلة التي يقطعها الحبيبان، وهي ذروة اللذة والنشوة التي تعقب الصحبة.

ولا يخفي مافي البيت من صورة تشبيهية، جاءت أداة التشبيه فيها كلمة (أشباه) والمشبه هو معانقة السيف، والمشبه به هو معانقة الغيد الأماليد. ووجه الشبه كما قال الشاعر هو الرونق، كأنه قال: معانقة السيف كمعانقة الغيد الأماليد... **ويبدو أن الغيد الأماليد فتحن الباب للبيت التالي فقال:**

لم يَترُكِ الدّهْرُ مِنْ قَلبي وَلا كبدي ∴ شَـيْئاً تُتَيّمُـهُ عَـينٌ وَلا جِيـدُ

وهذا البيت زفرة ألم من زفرات المتنبي، جمع فيها بين قلبه وكبده، ومعنى (تُتَيِّمه) أي: تأسره بالحب، وتعشقه، وكأن الدهر أتي عليه بنوائبه فلم يترك في قلبه موضعا لعشق، ولا مكانًا لهوى، ولا وقتا لغزل، فانشغل بالجد، وانصرف إلى الشدائد، فالعيون ترمي بسهامها القلوب، وتقذف أعناق الغيد الأماليد بحرابها الأكباد، وشاعرنا لم يبق عنده شيء في قلبه فارغا يستقبل هذه الطعنات، ولا مكانا في كبده خاويا يتلقى تلك السهام، فكل ما في قلبه مربوط بالمعالي، وكل ما في كبده شغلته العوالي، ولا وقت ولا مكان لحب أو غزل، والذي جعله كذلك هو الدهر، وحين يشغلك الدهر فاعلم أنه لا وقت للحب والهيام، والبداية بأسلوب النفي: (لم يترك) يشعرك بأنه يبحث عن مترك، لكنه لم يجد متركًا، وحين بحث في القلب فلم يجد انتقل إلى الكبد، فلم يجد أيضا، فعطفُ الشاعر (الكبد) على (القلب) يشعرك بأنه فعل كل ما في وسعه من بحث عن مكان لهيام، أو موضعا لغرام، فلم يجد شيئا يسع ذلك، وهذا كله من باب المبالغة.

ولا تنس أن تنظر إلى عطفٍ آخر في البيت، وهو عطف (الجيد) على (العين) وذلك لأن أثر العين في المتيم أشد وأبقى من أثر الجيد، وسهام العيون أصوب وأنفذ من سهام الجيد.

وهنا اتهم الشاعر نفسه، وأنكر مشاعره، لأنه لا يتأثر بما يتأثر به الناس، ولا يطرب بما يطرب به الناس، فالتفت إلى الخمر، ونادى على الساقي وقال له:

يا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ في كُؤوسكُما ∴ أمْ في كُؤوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسهيدُ؟

أصَخْرَةٌ أنَا، ما لي لا تُحَرّكُني ∴ هَذِي المُدامُ وَلا هَذي الأغَارِيدُ

إذا أرَدْتُ كُمَيْتَ اللّوْنِ صَافِيَةً ∴ وَجَدْتُهَا وَحَبيبُ النّفسِ مَفقُودُ

وأول ما يلفت القارئ في هذه الأبيات نداؤه على الساقِيِيْن فقال: يا (ساقيَّ) والمعلوم أن الساقي واحد، مما يستدعي الوقوف قليلا على صيغة التثنية في الشعر العربي كله، تلك الصيغة التي لا تكاد توجد إلا في لغة العرب، حتى أن امرأ القيس استهل معلقته الشهيرة بنداء الاثنين (قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ) وفي مناظرته قال له علقمة الفحل: (خليلي مرا بي على أم جندب) وهنا المتنبي يقول : يا ساقيَّ ...إلخ فماذا يوجد في المثني حتى يلجأ إليه الشعراء، فيخاطبون المفرد بلفظ المثنى؟ وما الدلالة النفسية في ذلك؟ ولماذا صار العرف الشعري هو نداء الاثنين، حتى وإن كان المنادى مفردا أو جماعة ؟ وهل لهذا علاقة بكون الإنسان وليد ذكر وأنثى ؟ أم لأن الحياة كلها قائمة على هذه الثنائية ؟ وهل هذه الثنائية هي التي جعلت المتنبي موزعا بين سيف الدولة وكافور حتى طغت عليه، فعبر بما ينم عن تشتته، وتصدع نفسه بين حبيبٍ مجافٍ، وأمير يرجو نواله ؟ وما علاقة كل ذلك بثنائية الإنسان في معاملاته كلها، فتارة كريم وتارة بخيل، وتارة رحيم وتارة غليظ ؟ والذي أراه أن الشعر كلة نتاج صراع بين طرفين، يعركان الشعراء عركا، ويبقى الشاعر بين هذين الطرفين يتحمل، حتى ينفتح في قلبه باب الإبداع فينطلق الشعر من بين فكية انطلاق الماء من العين الفوارة، أو انطلاق الصخرة من سفح الجبل، ولو راجعت شعر الشعراء جميعا لأمسكت بهذين الطرفين، وعلمت أن الشعر هو بقايا الصراع المحتدم في قلبه بين

طرفين، قد يكونان هما الموت والحياة، أو القرب والبعد عن الحبيب، أو بين كرامته ومن يتعرض لها بالانتقاص، ... إلخ

المهم أن الشعر في مجمله نتاج هذا الصراع، ولذلك تشيع فيه هذه الثنائية، بقصد من الشاعر، أو بدون قصد، لكنها في النهاية تعبر عن وجود هذين الطرفين في قلبه، ومع ذلك فأنا لا أجزم بما أقوله، إنما أفتح الباب لكل هذه الأسئلة، لأنها تحتاج إلى دراسات في صيغة التثنية في الشعر العربي .

وأعود إلى بيت المتنبي: يا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ في كُؤوسكُما أمْ في كُؤوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسهيدُ؟ فالمعروف أن المتنبي لم يكن يشرب الخمر، ولم يُؤثر عنه أنه من أهلها، إنما هو باحث عن العلا والمجد، وحبيب النفس عنده هو المجد، لأنه يرى نفسه نفس الملوك، ومن شغل نفسه بالخمر لا يطمع في منازل الملوك، لكن المتنبي حين رأى من نفسه قسوة حتى أنه لا يتحرك بما تتحرك به النفوس سأل الساقي، والخمر التي أرادها المتنبي هنا هي المؤثرات التي تملأ الحياة، وجعل هذه المؤثرات لا أثر لها حتى قال للساقيَيْن : أهذه خمر أم هموم وأرق، والهمزة في بداية الجملة هي همزة التصور، لأنه أعقبها بأم، ويراد منها النفي، وكأنه يقول: ليس ما في الكؤوس خمرا بل فيها الهم والأرق، وأضاف الساقيين إلى نفسه بياء المتكلم مما يشعر بأنهما مقصوران على سقايته وحده، ومشغولان بجلب الهموم له، وأنا أستشعر أنه أراد بالساقيين سيف الدولة، وكافور؛ لأنهما الموكلان بهمومه وتعذيبه، فسيف الدولة رضي بفراقه وهو الحبيب، وكافور الأخشيدي ضيق عليه العطاء وأمر ببقائه، وكلا الأمرين بالنسبة للمتنبي همّ وتسهيد، رغم أنه توقع منهما ما يتوقعه شارب الخمر من الساقي، ولو أنك تفكرت في الصورة لوجدت المتنبي يشير بالساقيين إليهما، ويرسم للقارئ صورة استعارية تصريحية يشبه فيها (سيف الدولة وكافور) بساقيي الخمر بجامع توقع السعادة من

كل، ويتناسى التشبيه، ويستعير المشبه به للمشبه ويوغل المتنبي في هذه الصورة حتى يقول:

أَصَخْرَةٌ أنَا ؟! ما لي لا تُحَرّكُني ∴ هَذِي المُدامُ وَلا هَذي الأغَارِيدُ

وهذا البيت ليس كما قرأه الشراح، فالمتنبي لا يتعجب من حاله، لأنه أدرى بها، ولا ينكر على نفسه قلة الجَلَد، بل يتعجب منهم، ومن ظنهم فيه، يتعجب من سكوت سيف الدولة على إيذائه دون أن يدافع عنه، فهل هذا الموقف سهل بالنسبة لمن نفسه نفس الملوك، أيظن سيف الدولة أن المتنبي صخرة، أم يظن كافور أنه حين يمنعه العطاء، أو يأمر باستبقائه ومنعه من الرحيل أنه لن يتأثر، أصخرة هو، ما هذا يا أيها الساقيان؟.

بل من أعجب العجب أن يظن كل منهما أن هذه الأشياء كالمدام، وكالأغاريد، وأنني سأطرب بها، وأستمتع بهذا الذل وهذا الهوان كما يستمتع به الآخرون، والدليل على أن المتنبي أخرج الكلام مخرج التهكم، أنه أشار إلى المدام فقال (مالي لا تحركني هذي المدام) واسم الإشارة (هذي) يدل على أن المدام المقصود هو الذل والتنكيل، وإهدار الكرامة، وهذه أمور قد تصلح لغيره، وقد يطرب بها غيره، أما هو فلا يطرب بسماع الكلام الذي لا يقدره حق قدره، ولا يطرب لهذه الكلمات التي لا يُمتدح بها، لأنه لا يقل قدرا عن الملوك، ولا ينقص مكانًا عن السلاطين، ذاك هو المتنبي، والذي لا يفهم شعره على غير هذا النحو فكأنما خلط كلاما بكلام، ومزج معاني بمعان، وأدخل في شعره مالا يريده ... ثم قال:

إذا أرَدْتُ كُمَيْتَ اللّوْنِ صَافِيَةً ∴ وَجَدْتُهَا وَحَبيبُ النّفسِ مَفقُودُ

وهذا البيت يؤكد المعنى الذي ذهبت إليه، لأن المتنبي أراد بـ**(كميت اللون)** هنا الخمر الحقيقية، وكأنه يقول : إنني لو شغلت بالخمر الصافية لوجدتها، لكنه يريد خمرا من نوع آخر لا توجد، يريد خمر المجد، خمر المعالي، خمر العز والمنزلة العالية، تلك هي الخمر التي تطربه، أما خمور الناس الصافية

فهذه سهلة المنال، ولو أرادها لوجدها، فما قيمة هذه الخمر مع فقد الخمر الحبيب إلى نفسه؟ و**(الكميت) أحد أسماء الخمر**، وفي لونه احمرار يضرب إلى سواد، أو حمرة مخلوطة بسواد، (قال سيبويه سألت الخليل عن "الكميت" فقال إنما صُغِّر لأنه بين السواد والحمرة، ولم يخلص له واحد منهما، وأراد بالتصغير أنه منهما قريب المعنى، يقول: الخمر لا تطيب إلا مع الحبيب وحبيبى بعيد عنى، فليس يسوغ لى الخمر،... قال أبو الفتح: حبيب القلب عنده: المجد، وإذا تشاغل بشرب الخمر فقد المعالى)[١] ويشغلني في هذا البيت موقع جملة (وحبيب النفس مفقود) من الإعراب، ولا أستسيغ جعلها جملة حالية من الفاعل في (وجدتها)، وأميل إلى جعل هذه الواو مستأنفة، وجملة (حبيب النفس مفقود) مستقلة، وكأنه أراد: أنني إذا بحثت عن الخمر وجدتها بسهولة، أما الذي لا أعثر عليه مهما بحثت عنه، ولا أجده مهما فتشت عليه فهو المجد، والعز، فهذا مما لا ينبغي البحث عنه لأنه مفقود، والمتنبي هنا يضع هاتين الجملتين في مرمى النظر معا، فالخمر حين تراد توجد، والمجد حين يطلب لا يوجد، ولو أجهدت نفسك في البحث عنه فلن تجده، ولقد بحث عنه كثيرا، فلم يجده، حتى صار مفقودا، وأشيع هذا بين الناس، حتى لا يتعب أحد في التفتيش عليه، هذا ما أتذوقه من وراء جملة (وحبيب النفس مفقود) .... ثم قال:

ماذا لَقيتُ منَ الدّنْيَا ؟ وَأَعْجَبُهُ ∴ أني بمَا أنَا شاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ

وهذا البيت بداية الحكاوى العجائب التى لاقاها المتنبي من الدنيا، وهو يحكيها لحبيبه، ولعله يستحضر في نفسه سيف الدولة، أو يتخيل أنه إذا عاد إليه سيحكي له مالاقاه من عجائب الدنيا، ويعاتبه على تركه يقاسي كل هذا وحده، وهذا السؤال في أول البيت يريد منه أنه لاقى من الدنيا الكثير

(١) **شرح ديوان المتنبي للعكبري ٢/٤١.**

والكثير، وتحمل منها ما لا يتحمله أحد، وهذا البيت وما بعده حتى أخر القصيدة يبين فيه المتنبي ما لقيه من شدائد في مصر، بداية من حسد الناس له على قربه من كافور، وانتهاء بعتابه لسيف الدولة الذي تركه يلاقي هذه الأهوال في البلاد الغريبة عنه، والملوك التي لم يعتد على طبائعها، ولا تعرف أقدار الشعراء.

وأول البيت استفهام يراد منه التعظيم والتهويل، ولك أن تستحضر هنا ما لقيه قبل المجيء إلى مصر، ولا تستبعد ما لقيه من أقرانه الشعراء الذين ينافسونه، لكنه اختار شيئا، يراه عجيبا، بل هو أعجب ما لقيه من لأواء الدنيا، وهو حسد الناس له على وجوده قرب كافور، ولا يعلمون أن هذا القرب سبب شقائه، ومصدر تعاسته، ورب محسود بدائه، والناس لا ترى إلا الظاهر، ولو علموا ما به لأشفقوا عليه.

و(ما) في قوله: (ماذا لقيت) مبتدأ و(ذا) اسم موصول بمعنى الذي، والتقدير ما الذي لقيته، أو أن (ماذا) بمعنى أي شيء وهي مفعول به للفعل (لقيته) والتقدير: أي شيء لقيته، وعلى التقديرين فإن المقصود أنه لاقى الكثير، وهذا من باب التنفيس عن النفس، وبث الشكوى ليستريح من الألم الذي يحيط به، أو أن السؤال طرح عليه، فقال : لقيت الكثير، وأعجب ما لقيت كذا وكذا، فجملة (وأعجبه أني بما شاك منه محسود) تكملة لجواب السؤال المطروح عليه، والبدأ بكلمة (وأعجبه) يعني: أن كل ما لقيه في الدنيا هو من العجائب، لكن أعجب هذه العجائب، أن الناس يحسدونه على قربه من كافور، وبنى الجملة على التوكيد بـ (أن) وجعل ياء المتكلم اسمها، وأخر الخبر (محسود) ووضع بين المبتدأ والخبر سبب العجب، وهو ضيقه الشديد بهذا القرب الذي يراه الناس نعمة، ورغبته الشديدة في التخلص منها، وتحينه الفرصة للهروب من مصر، فأعجب العجب أن تكون في شدة وبلاء ويحسدك الناس عليه، فالناس تظن أن كافور يغدق عليه الأعطيات، ويجزل

له في الهدايا، ويترك له المال يأخذ منه ما يشاء، ولذلك أخذ المتنبي يشرح هذا الأمر، ويوضحه للناس، ويوضح حاله في مصر، ومع كافور، حتى لا يكون محل حسد وهو في كرب، فبدأ فقال:

أمْسَيْتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خَازِناً وَيَداً ∴ أنَا الغَنِيّ وَأمْوَالي المَوَاعِيدُ

وهذا من عجائب ما لقيه في مصر أنه الغني الفقير، الذي يملك ولا يملك، وبدأ بيان ذلك بالفعل (أمسيت) وهو أحد الأفعال الناقصة التي تدل على الزمن الكئيب، وفرق كبير بين أن تقول: (أصبحت) و(أمسيت) لأن في الصباح فرح وسرور، وفرج، أما الإمساء فإن فيه الهم والنكد، والألم والشقاء، وفي اللغة ألفاظ حملت من المعاني كثيرا من الدلالات التي خبأتها تحت معطفها، ولا يكشف سترها إلا الشعراء الفحول مثل أبو الطيب. **وكلمة (أروح) من الراحة**، وكأنه أمسى أكثر الأغنياء راحة، أو أن الخازن الذي يخزن له المال، والعبيد التي تحمل له المال أمسوا أكثر الناس راحة، لأن المال المعهود إليهم بحفظه هو المواعيد، والبيت كما ترى يقطر ألمًا، وسخرية، وتهكما من هذه الأحوال، وفي معمعان كل ذلك يحسده الناس، وتلحظ في هذه البداية بالفعل (أمسيت) ما يشعرك بأن المتنبي انتقل من نهار إلى ليل، ومن سعة إلى ضيق، فغابت شمسه، وانطفأ مصباحه، وضاقت عليه الأمور بعد سعة.

وكل ذلك يشير من بعيد إلى حاله السابق مع سيف الدولة الذي انقلب إلى حال أخرى مع كافور، فهناك خيط مشدود في القصيدة تنتظم عليه جميع المعاني، وراجع ذلك بهدوء في لفظة (العيد) الذي ما يفتأ ينقضي حتى يعود، والبيد التي دونها بيد، والوجناء التي يجوب بها وتجوب به، ثم يجمع مع هذه الناقة الوجناء الفرس الجرداء القيدود، والقلب والكبد، والساقيان، وأنه إذا وجد شيئا فقد آخر... إلخ.

وأعود إلى البيت فأقول: إنه يتهكم ويسخر من هذه الحال التي أمسى بها أكثر الأغنياء راحة، فلا خازنه يتعب، ولا حامل ماله يتعب، حتى كأنما يضرب به المثل في الغنيّ الذي لا يملك شيئا، وقوله: **(أنا الغني وأموالي المواعيد..)** جملتان خبريتان، كل منهما مكون من مبتدأ وخبر، وقد فصلتا عن جملة (أمسيت) لأنهما جواب عن سؤال يثار، وهو: كيف أمسيت هكذا، وما الدليل على كلامك، فجاءت جملة: (أنا الغني وأموالي المواعيد) لتكون إجابة عن هذا السؤال.

ووقعت جملة: (وأموالي المواعيد) محل حال من قوله: أنا الغني، والتقدير: أنا الغني حالة كون أموالي المواعيد، لأن المراد السخرية والتهكم، من حاله وحال الناس معه، وحال كافور معه، فهو في كرب، لبعده عن الأحبة، ويمنعه كافور من الذهاب، ويحسبه الناس غنيا فيحسدونه، وغناه ليس إلا مواعيد، والمواعيد لا شك كاذبة، ولذلك قال بعده:

إنّي نَزَلْتُ بكَذّابِينَ، ضَيْفُهُمُ ∴ عَنِ القِرَى وَعَنِ التّرْحالِ محْدُودُ

وهذا من عجائب ما لقيه في مصر، وهو نزوله ضيفا على أناس كذابين، بخلاء، وبدأ ببيان ذلك بقوله: (إني نزلت بكذابين) وعلي القارئ أن يقف هنا، كما يجوز الوقوف على (نزلت) لتضيف إلى المعاني معنى أخر، وتبين أن النزول هنا ضرب من العجائب، لأن المتنبي في منزلته خانه عقله، فحل ضيفا على بخلاء كذابين، فنزل بقدره، وسقط عن مكانته، فكلمة (نزلت) وظلالها حين تصدر من المتنبي تعلم أن من ورائها دلالات، وكأنه يعاتب نفسه بها، **ومن أبى هذه المعاني فليقرأ شيئا غير الشعر، فالشعر يُقرأ بعين تتدسس في أعطاف الكلام لتستنطق ما يخبئه من طيور المعاني التي تراها تارة وتغيب عنه أخرى**، المهم أنه نزل، وحين نزل نزل بكذابين، وهنا انتهت الجملة، وهذا يعني أن هناك وعودا قيلت له قبل أن ينزل بهم، وأن هناك عطايا عرضت عليه إن جاءهم مادحا، وكلمة (كذابين)

وصف لموصوف محذوف تقديره بقوم كذابين، لكنه حذفها حتى لا يعلق بذهن القارئ إلا الوصف، ولا تظن أن الكذابين هم المصريون، فهذا بعيد، لكن الكذابين الذين يريدهم هم كافور وحاشيته، الذين وعدوه فصدقهم، ومنُّوه بالأماني ووثق فيهم، وهم الذين يملكون ضيافته الكريمة، ويملكون الإذن له في الرحيل، أو تحديد إقامته، ومنعه عن الترحال، ولذلك قال: (ضيفهم) أي: ضيف الكذابين عن القرى وعن الترحال محدود، والمصريون لا يملكون تحديد إقامة المتنبي، ولا منعه عن السفر، مما يعني أن الكذابين هم حاشية كافور الذين بخلوا عليه، ومنعوه من الترحال...

وبناء الجملة يحمل من الهجو والتبكيت الكثير، وبخاصة حين بدأ بكلمة (ضيف) وهي كلمة تستدر كرم البخيل، فلا يسمعها أحد إلا وبادر بالعطاء، ثم أضاف هذا اللفظ إلى الضمير العائد على الكذابين، وأخَّر الخبر ليشوق القارئ إليه، أو ليصدمه به، ووضع بين المبتدأ والخبر عطائين لا يبخل بهما أحد، وهما قرى الضيف الذي أوجبه الإسلام، وحرية الترحال التي حمتها الأديان والإنسانية معًا، ليعرف القارئ أيَّ بلاء حل به، وأن هذه الرحلة كانت من أعجب ما لاقاه في الدنيا.

ويبدو أن هذه النَّفثة حين فُتحت لم يستطع سدها حتى تنتهي، فترك لها العنان فجاءت الأبيات التالية كلها تفرج عما في قلبه من ألم، وتحكي ما عاناه من كافور وحاشيته، ويظل المتنبي عند الكرم والجود، ولا يتركه حتى يفرغ ما في قلبه من عجب تجاه هؤلاء، لأنه وجد نموذجا عجيبا في الكرم، فقال:

جودُ الرّجالِ من الأيدي وَجُودُهُمُ ∴ منَ اللّسانِ، فَلا كانوا وَلا الجُودُ

وهذا البيت يأتي في إطار الوصف لحاشية كافور، وجاء هذا الوصف في صورة موازنة بين طرفين، بين جود الكذابين وجود (الرجال)، وكلمة (الرجال) هنا لا يجوز المرور عليها دون وقفة، لأن المتنبي لا يريدك أن

تمر عليها دون أن تستحضر أن كافور وحاشيته ليسوا برجال، وكأنه متهكما يعذرهم في بخلهم، لأنهم ليسوا رجالا حتى يجودوا جود الرجال، فإذا كان جود الرجال من أيديهم، وهذه صورة كنائية يريد بها العطاء، فإن جود حاشية كافور من اللسان، وجود اللسان هو الوعود الكاذبة، وهذا يعيدك أيضا إلى جملة (وأموالي المواعيد) التي وصف بها كافور، فالمعنى واحد، لكنه عبر عنه مرة بجملة (وأموالي المواعيد) ومرة بجملة (جودهم من اللسان)، ثم ختم البيت بدعاء عليهم فقال: (فلا كانوا، ولا الجود)، أي: ولا كان الجود، وهذا تعبير إنشائي يفيد الدعاء فلا النافية إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت الدعاء، ويكون الكلام إنشاء وليس خبرا، فإذا أردت الإخبار بنفي الماضي فقل: (ما كانوا) والدعاء هنا يقصد به الفناء، والهلاك لهم وللجود معا، وكأن فناءهم مع فناء الجود في الدنيا أفضل للبشرية من وجودهم حتى وإن بقي الجود.

وهذه كلها زفرات يطلقها المتنبي من صدره ،حتى يستريح من هذا الهم والتنكيد الذي سببه منعه من الترحال، ومنعه من العطاء، ولعله أراد بعد هذه الزفرات أن يعذره السامع في دعائه عليهم فقال:

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم ∴ إلاَّ وفي يده من نتنه عودُ

وهذا البيت وُضع في دائرة القصر، بأداتيه (النفي والاستثناء)، لينزع من قلب القارئ كل شك في مضمونه، رغم أن مضمونه فاق التصور، لأنه يصور كافور وحاشيته على أنهم مخلوقات قذرة، ونفوس نتنة، وأرواح خسيسة، حتى أن الموت إذا أراد قبض روح منهم استعان بعود من الحطب

لينزعها، خشية أن يصيبه من نتنها شيء[١] وهذا تصوير لم يُسمع في الشعر من قبل، ولم أر في شعر السابقين صورة كهذه، ولقد بلغ المتنبي في وصف حقارة هؤلاء مبلغا لم يصل إليه أحد، حيث صور الموت في صورة رجل إذا أراد نزع إحدى هذه النفوس فإنه لا يقوى إلا بالاستعانة بعود من الحطب، ولقد شاع بين العامة أن الخصيان مناتين أقذار، وأنهم إذا ماتوا صدرت منهم من الروائح القذرة ما تتعفف منه النفوس، وكل ذلك من الوهم، لكن الروعة والحسن في رسم هذا المشهد، مشهد الاستعارة التمثيلية، وفيها ترى الموت في صورة رجل له يد، وتراه وهو يقبض نفوس الناس فلا يحتاط، لكنه حين يقبض نفسا من نفوس هؤلاء، فإنه يبحث عن عود من الحطب على قارعة الطريق، ليمسك بهذه النفس الخبيثة من بعيد، ويخرجها وهو متحسب، حتى لا يصيبه من نتنها، وكأن هذا النتن لا طهارة منه، وهذا عجيب، ولو أنك أعدت بناء هذه العبارة فقلت : إلا وفي يده عود من نتنها، أو تقول : إلا والعود في يده من نتنها لما بلغت ذروة المعنى الذي ارتقى فوقه المتنبي، وذلك لأن تنكير كلمة (عود) وتأخيرها في العبارة يشعرك بأن الموت لا يمسك بعود مخصوص، إنما يلتقط أي عود مهمل على الأرض، فكل شيء غير نفوسهم طيب، حتى عيدان الحطب الملقاة على قارعة الطريق. ثم قال:

من كلّ رخو وكاء البطن منفتقٍ ∴ لا في الرّجال ولا النّسوان معدود

---

(١) لعل أبا الطيب المتنبي استحضر حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الحاكم في المستدرك: ٩٣/١ ويرويه عن (البراء بن عازب، وفيه يقول: (... وأما الفاجر: فإذا كان في قبل من الآخرة و انقطاع من الدنيا أتاه ملك الموت فيقعد عند رأسه و ينزل الملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيقعدون منه مد البصر فيقول ملك الموت: أخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سخط من الله وغضب قال: فتفرق في جسده فينقطع معها العروق والعصب كما يستخرج الصوف المبلول بالسفود ذي الشعب).

وهذا البيت يقصد به كافور، والإنسان (الرخو وكاء البطن) هو الضرَّاطُ الفسَّاءُ، الذي لا يستطيع إمساك مافي بطنه من ريح، ولا يقوى على ضبط ما يعنُّ له من تقلبات الطعام، **قال أبو العلاء:** (هو الرخو الشرج الذي لا يحبس ما يخرج منه، وهكذا يكون الخصي، وإنما عني به (كافور) وحده، وأخبر عنه بلفظ الجمع)[1]، وكأن الخصاء قد فك رباط بطنه، وفك قدرته على التحكم في طعامه فصار (منفتقًا) أي: سمينًا كثير اللحم، وهو بهذا خرج عن وصف الرجال، وكذلك خرج عن وصف النساء، فلا هو في الرجال معدود، ولا هو في النساء معدود، وهذا لا يُنظر إليه إلا شذرا، ولا يلحظ إلا بالانتقاص والاحتقار، ولن تجد في هجاء الناس مثل هذا! ثم قال:

أكلّما اغتال عبد السّوء سيّده ∴ أو خانه فله في مصر تمهيد

هنا تحول المتنبي من الحديث عن كافور وحاشيته إلى الحديث عن مصر، وكأنه يحكي عن تاريخ مصر الذي عَرَفَه القاصي والداني، ذلك التاريخ الذي استقر في نفوس الخلائق، وصارت تتحدث به الركبان، إنه التاريخ القديم الجديد، الذي لا ينتهي حتى يعود، ورحم الله المتنبي فلقد خَبَر أمر مصر، ووضع يده على الداء فيها، هذا الداء الذي نتغافل عنه، ونحاول الانزواء عن مواجهته، مما عاد على البلاد والعباد بالتأخر في كل شيء، وراجع بعد هذا كلمات البيت، راجع كلمة: (سيده) وانظر كيف حاول هذا السيد أن يفك هذه الأغلال عن رقاب البلاد، ثم يأتي عبد من عبيد السوء فيغتاله، وكأن كل من يريد بمصر الخير هو سيد من السادات، وكل من يغتال هذا السيد هو خائن من الخونة، وراجع البيت على مَهَل، وقف عند كلماته، كلمة كلمة، وهي معزولة عن النظم، وحاول أن تسقطها على شعب من الشعوب، واسأل نفسك أين يحدث هذا؟ لأن المتنبي يقول إن كل

---

(١) معجز أحمد شرح أبي العلاء المعري لديوان المتنبي: ٤٠٨/١.

صورة من صور اغتيال عبد السوء لسيده مصنوعة هنا، ومتعلمة هنا، وكأن هذه الأرض تعلم البشر هذه النقيصة، هذا معنى: (فله في مصر تمهيد) ولو سألت: من السيد المغتال في البيت ؟ لقلت لك إنه الشعب، ولو سألت: ومن عبد السوء الذي يغتال ؟ لقلت لك إنه كل من يريد قهر وظلم وإذلال هذا الشعب.

ونعود إلى البيت فأول البيت هو قوله: (أكلما) والهمزة استفهام يراد منه الإنكار والتعجب والتعجيب، فكأنه قال: لا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو، و(كلما) كلمة تدل على التكرار، وعموم الزمان، و(الاغتيال) هو القتل غيلة أي : على غفلة، **يقول أبو العلاء المعري:** (وهكذا كل عبد في مصر إذا خان مولاه، أو قتله ارتفع شأنه)[١] وكأن الاغتيال والخيانة إحدى مسوغات التملك، وإضافة لفظ (عبد) إلى لفظ (السوء) في سياق القصيدة إضافة لزومية، لأن كل عبد في عرف المتنبي هو عبد السوء، لأن العبيد عنده أنجاس مناكير، فإما يغتالون أسيادهم، وإما يخونونهم، وعليه فلا عبد عنده إلا وهو عبد السوء، وهذه عنصرية مقيته، لكنها طبيعة المتنبي لمن لم يعرفه، وجملة **(فله في مصر تمهيد)** أي: أن كل عبد آبق إذا أراد أن يمهد لنفسه فليأت إلى مصر، فمصر في هذا الوقت كانت مهدًا للآبقين حتى قال أبو العلاء: **(لما ملك كافور مصر هرب كل عبد من مولاه وانضم إليه، فالحر ذليل كأنه عبد، والعبد مخدوم بها مُعظّم)**[٢]. وهذا من المضحكات المبكيات... ثم قال:

صَارَ الخَصِيّ إمَامَ الآبِقِينَ بِهَا ∴ فالحُرّ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ

---

(١) معجز أحمد: ٤٠٨/١.

(٢) السابق: ٤٠٨/١.

وهذا البيت مربوط بجملة (كلما) لأن الفعل (صار) وما تعلق به داخل في الأحوال التي دلت عليها كلمة (كلما)، والتقدير:

- كلما اغتال عبد السوء سيده فله في مصر تمهيد.
- كلما اغتال عبد السوء سيده صار الخصي إماما للآبقين.
- كلما اغتال عبد السوء سيده صار الحر مستعبدا.
- كلما اغتال عبد السوء سيده صار العبد معبودا.

فهذه الأحوال متوقفة على كسر هذا الحاجز بين العبيد والأسياد، فإذا انكسر هذا الحاجز، وتجرأ العبد على سيده فلا تعجب مما يأتي بعدها، لأنك سترى العبد سيدا والسيد عبدا، والخصي إماما، والآبق آمنا، وهكذا.

والشاعر يقصد بالخصي هنا كافورا، ، ويصور حاشيته على أنهم جميعا من العبيد الآبقين، ومعلوم أن العبد الآبق هو: العبد الهارب من سيده، وهذا ذنب عظيم، فلقد جاء في السنة عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِم، وقال أيضا: إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة)**[1] فهروب العبد من سيده من المعاصي الكبرى، ومن أعمال الجاهلية، وعليه فإن المتنبي يصور كافورا عبدا آبقا، بل هو إمام الآبقين، كما يصور حاشيته كلها على أنها ثلة من العبيد الآبقين، الذين يحميهم كافور، قال أبو العلاء: **(لما ملك كافور مصر هرب كل عبد من مولاه، وانضم إليه)**[2] وعليه صار كافور إمامًا للهاربين، وملاذا للمجرمين، وأعطاهم من الصلاحيات ما يجعلهم يتحكمون في الناس، فصار الحر عبدا، والعبد سيدا، وهذه الجملة صورة حية لمصر وأهلها مع حكامها منذ الأزل، فالحر في

---

(١) رواه مسلم رقم ٥٨.

(٢) معجز أحمد لأبي العلاء المعري شرح ديوان المتنبي ٤٠٩/١.

مصر مستعبد بقوة السيف، والعبد في مصر سيد مطاع، وكأنه إله معبود، ولقد أبدع المتنبي حين طابق بين الطرفين في صورة تقابلية ماتعة، فقال : **(فالحر مستعبد والعبد معبود)** ولم يقل: والعبد حر، أو حتى: والعبد سيد، إنما قال : والعبد معبود، لأنه أراد أن العبيد في مصر هم السادة، بل إنهم يظنون أنهم آلهة، كما قال الفرعون الأول: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾"[١] لذلك قيل: (والعبد معبود)، وكم في مصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا. ثم قال:

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصرٍ عَنْ ثَعَالِبِها ∴ فَقَدْ بَشِمْنَ وَما تَفنى العَنَاقيدُ

والنواطير جمع ناطور، والناطور هو (حافِظُ الكَرْمِ والنَّخْلِ، أو حافظ الزرع)[٢] وذكر ابن جني أنه كلم المتنبي حول كلمة (النواطير)، وهل هي بالطاء أم بالظاء فدله على أنها بالطاء، وقال له: (كذا، بالطاء غير المعجمة... يقول ابن جني: وكلمته في وقت القراءة عليه فأقام عليه،

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

(٢) لسان العرب لابن منظور (نطر) ٦/ ٤٤٦٠ ذكر الجواليقي (ت ٥٤٠هـ) في كتابه (المعرب) أن كلمة "الناطور" من المعرب تعني حافظ النخل والشجر ، واستدل على كونها عربية الأصل بما ذكره الأصمعي أن المقابل العربي لهذه الكلمة هو "الناظور" بالظاء ، ذكر الدكتور محمود فهمي حجازي في كتابه (علم اللغة العربية) (أن الظاء العربية يقابلها طاء في الآرامية، وهذا قانون من القوانين الصوتية المطردة، وكان الجواليقي قد لاحظ اطراد التقابل بين الظاء العربية والطاء الآرامية فالمادة "نظر" في العربية لا بد وأن يقابلها "نطر" في الآرامية؛ يقول الجواليقي : والنبط تجعل الظاء طاء) ج١ ص ٢١٢.

وكرهت مطاولته)[1] أي أنه راجعه فثبت على أن الكلمة بالطاء غير المعجمة، وهنا سكت ابن جني ولم يراجعة ثانية.

والبيت مبني على التصوير الكنائي، لأن (النواطير) كناية عن السادة الكبار الذين يجب عليهم أن يحفظوا البلاد من الأوباش، ويريد بهم خصوصا أهل مصر وساداتها، أما (الثعالب) فكناية عن الخدم والعبيد والأرذال، وكلمة (البشم) تعني غثيان النفس من كثرة الطعام والأكل، والعرب تقول : بشم فلان، إذا أخذته تخمة وثقل من كثرة الأكل، أما (العناقيد) فهي جمع عنقود، وعنقود العنب معروف، لكن المتنبي كنى به عن الشعب المصري الذي يزخر بالخير، ويمتلك من الكنوز مالا يفنى، من طيب نفس، وقوة ساعد، وإخلاص في العمل، وقدرة على الإنتاج، ثم إنه يمتلك أرضا تفيض بالخير، وأعطاه الله نهرا يجري لا يتوقف أبدا.

وهذه الصورة المركبة التي ترى فيها مصر من زاوية أخرى ،زاوية الزرع والبساتين، والصراع بين الخونة والحراس، أو بين النواطير والثعالب ، وترى أيضا تداول الأيام بين الطرفين، فكلما استيقظ النواطير رأيت الخير العميم، ورأيت الأمور في نصابها، فالسادة سادة والعبيد عبيد، لكن الوضع إذا تبدل ونام الحراس، وغفلوا عما يدور من الثعالب رأيت الأحوال قد انقلبت، فصار السادة عبيدا، وتحول العبيد إلى آلهة، وكل ذلك صوره المتنبي في صورة الصراع بين الثعالب والنواطير.

ورغم أن الصراع قديم جديد، فمازالت مصر تزخر بالخير، وخيرها – بفضل الله لا ينفد،ومازالت العناقيد تنير بحبات العنب التي تحتاج إلى يقظة الحراس حتى لا تفني.

---

(١) النظام في شرح شعر المتنبي لابن المستوفي: ٢/ ٣٤ مركز الملك فيصل للبحوث د/ خلف النعمان.

ولا شك أن هذه الصورة التمثيلية صورة متجددة في مصر، ليس من زمان المتنبي فقط، بل من عهد الفراعين الأوائل، وكأنها قدر كتب على هذه البلاد، فالخير عميم، والثعالب دائما متربصة بها، وساداتها – مع الأسف – نيام، ومن استيقظ أنيم قتلا أو قهرا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والبيت على **جماله فيه مجموعة من الرسائل:**

- الرسالة الأولى موجهة إلى هؤلاء الحراس، نواطير البلد وساداتها، أن يستيقظوا، وأن يقوموا بواجبهم نحو هذا الوطن، وأن يحموا الحمى، ويطردوا الطامعين في خير البلاد، وهم ليسوا من أهلها، لأنهم كالثعالب تنتظر غفوة الحراس.
- الرسالة الثانية إلى هؤلاء الثعالب الذين سطوا على البلاد فأكلوا من خيرها، حيث يقول لهم : ألا يكفيكم هذا ؟ لقد بشمتم!!
- الرسالة الثالثة إلى الشعب المصري الذي كنى عنه بالعناقيد داخل البستان قائلا: نامت النواطير فقم أنت، واطرد هذه الثعالب، قم بدورك في الحفاظ على نفسك، وعلى كنوزك، ولا تعتمد على النواطير، فقد نامت، وكأن البيت يوقظ الشعب بعد أن نام الحراس، والمتنبي لا يصف الحال في مصر إنما يستحث الشعب بأن يهب للحفاظ على مقدراته بعد أن تخلى الحراس وناموا، ويؤكد هذه الرسالة البيتان القادمان حيث قال:

العَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ ∴ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الحُرّ مَوْلُودُ

وهذه جملة خبرية يخاطب بها الذين يُخدعون – لطيبتهم – في الناس ويقول لهم : إن نفوس الأحرار ليست كنفوس العبيد، وإن العبد لا يصلح أن يكون أخا للحر، ولا نظيرًا له، ولا تظن أن هذه نظرة عنصرية من المتنبي، لأن المتنبي لا يقصد ما وصل إلى القارئ من ظاهر المعنى، إنما يريد إعلامنا **بأن النفوس قسمان:**

نفوس حرة تنفر من الضيم، وتأبى أن تخضع إلا لله عز وجل، وهذه النفوس تظل كريمة حتى وإن وُلدت في ثياب العبيد، وارجع بخاطرك إلى عنترة بن شداد، هذا الذي وجد نفسه عبدا، لكن نفسه التي كانت بين جنبيه كانت نفس حر يأبى أن يخضع أو يذل، وراجع شعر الإمام الشافعي حيث يقول:

أَنَا إنْ عِشْتُ لَسْتُ أعْدَمُ قُوتاً ∴ وَإذا مــتّ لَسْــتُ أعْــدَمُ قَبْــرَا

همتـي همَّـةُ الملـوكِ ونفسـي ∴ نَفْـسُ حُـرٍّ تَـرَى الْمَذَلَّـةَ كُفْـرَا

وراجع قوله: (نفسي نفس حر) وهذه النفوس ترى المذلة كفرا.

القسم الآخر: نفوس العبيد، وهذه لا تشعر إلا بالوضاعة، ولا ترى في الذلً إهانة، بل ترضى به، وتتعايش معه، فهي مفطورة على قبول الخنوع، حتى وإن وجدت نفسها بين السادة الأحرار، وعاشت عيشتهم، لكنها تبقى في النهاية نفوس عبيد، فالعبودية والحرية ليست في الأجساد، وإنما في النفوس.

وبعد أن يستقر في عقلك هذا فلابد أن تعلم أن هؤلاء العبيد لا يصلحون أن يكونوا إخوانا للأحرار، أصحاب الأنوف الأبية الحامية، حتى وإن كان العبد يعيش بين الناس على أنه حر كريم فإنه لا يصلح، ذلك لأن الطباع مختلفة، والمواقف مختلفة، وأخوة الأحرار أخوة نصرة وأنفة ورفض لكل إهانة، وسعي إلى القتال عند الإذلال، في الوقت الذي ترى فيه أخوة العبيد أخوة رضى بالضيم، وصبر على الذل، وعيش رغم الإهانات، فالمادة التى تتكون منها النفوس الحرة تخالف المادة التي تتكون منها النفوس الذليلة، ولا يختلط الزيت بالماء، لا ختلاف الطبيعة.

هكذا ينبغي أن نفهم كلام المتنبي، ولا يجوز اتهامه بأنه عنصري، أو يخالف قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[١].

ونعود إلى البيت وبنائه التركيبي، لأن الصنعة في البيت خافتة، وماء الشعر فيه قليل، وكأن المتنبي أراد أن يُخرج هذا المعنى من عالم الشعر إلى عالم الوعظ والإرشاد، ورأى أن الصنعة الشعرية ستغطي وجهه، فكشف عن مراده، وأزال سحابات الفن عن غرضه، فظهر الغرض واضحا كأنه عظة، ويروقني هذا الصنيع حين ينسى الشعراء ما يرفع قدرهم، ويُبقي ذكرهم بين أهل الشعر، ويهتمون بالمقاصد العليا والأغراض الشريفة، ويحاولون أن ينتعوا هذه النفوس من وهدة الغفلة، ويرفعوها إلى مصاف الكرام.

والبيت بدأ بكلمة (العبد) فجعلها مبتدأً، وأساسًا يبنى عليه ما يأتي، ويحكم عليه بما سيقال، وجاء بالخبر في تركيب مكون من جملة (ليس واسمها وخبرها) وأنا أريدك أن تشاركني المقارنة بين هذين التركيبين:

العبد لا يصلح أخا للحر

العبد ليس لحر صالحٍ بأخٍ

وراجع الفرق بين النفي بلا والنفي بليس، لأن النفي بلا يكون للجنس، أما النفي بليس فيكون للأمر الواحد، فكأن النفي بها أضعف، وشيء آخر يلحظ من خلال سياقات القرآن الكريم، وهو أن النفي بلا يكون في التكاليف والفرائض، أما النفي بليس فيكون في المباحات، وما يستحسن من الأمور، ومن هنا أستطيع أن أقول إن المتنبي أراد الإخبار عن عبد واحد، وهو كافور، لذلك جعله مبتدأ ليستحضره السامع، لأن النصيحة الموجهة إلى أهل مصر هي ألا يتخذوا من كافور أخا صالحا، ولقد جعل المتنبي الصلاح وصفا للأخ، ولو عدل عن هذا التركيب لجعل الصلاح فعلا، وقال (لا

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

يصلح) لكنه قال: ليس لحر صالح، ثم إن هناك فرقا بين أن تقول: لا يصلح أخا، وليس بأخ، فالتعبير الأول يفيد أن هناك تجارب بينت عدم الصلاح، وهذا يعني لا تفعلوا هذا، ولا تتخذوه أخا لأنه لا يصلح، لكن التعبير الثاني يشير إلى أنهم فعلوا، واتخذوا العبد أخا، وندموا على ما فعلوا فقيل لهم: كيف فعلتم هذا فالعبد ليس أخا.

فكأن **التعبير الأول: (العبد لا يصلح أخا)** يقال لمن سأل: أأتخذه أخا أم لا؟ **والتعبير الآخر: (العبد ليس أخا)** يقال لمن اتخذه أخا وتبين فساد رأيه، وقيل له: كيف تفعل هذا؟! فالعبد ليس أخا.

وزيدت الباء في قوله (بأخ) لزيادة معنى النفي، فكل حرف زيد في كلام العرب، قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى.

ثم قال: (لو أنه في ثياب الحر مولود) وهذه جملة معطوفة بالواو المقدرة قبل حرف الشرط (لو)، والتقدير: ولو أنه في ثياب الحر مولود، لكنه حذف الواو حفاظا على وزن البيت، فلما كان وجودها كاللازم جاز حذفها، لأن الكلام لا يتم إلا بها، والهاء في قوله: (لو أنه) تعود إلى كلمة (العبد) والمعنى: ولو أن العبد ولد حرا فإنه سيظل في داخله عبدا، لأنه ينزع إلى أصله، وطباع العبيد لا تتوافق مع طباع الأحرار، والولادة في ثياب الحر من الكنايات التي نطقت بها العرب، وكون الشيء في ثياب كذا أي: الذي يظهر منه، ويشيع عنه، فثياب الحر تعنى الحر، وفلان يمشي في ثوب الكرام يعني أنه من الكرام، وسنة العرب أن تنسب الشيء إلى الثوب، وإلى البيت، وإلى الأخ، وإلى كل شيء مرتبط بالمقصود وهم يعنونه، المهم أن المتنبي يؤكد على أن كافور عبد ولو ادعى أنه حر، واظهر للناس حريته، ومشى بين الأحرار وزعم أنه منهم، لكن الشاعر أخبر بكلمة (مولود) ولم يقل: معدود، لأن المولود حرا، ونفسه نفس عبد فلن يكون إلا عبدا، والمولود عبدا ونفسه نفس حر فلن يكون إلا حرا، وكم من عبيد غُيبوا خلف الأسوار

وهم أحرار كرام، ونبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام خير مثال على ذلك، وكم من أحرار يتيهون بين الناس بحريتهم وهم عبيد، وراجع التاريخ لتعرف ذلك جيدا، فالأصل الذي يرسخه المتنبي ويبني عليه كلامه أن الحرية والعبودية حرية نفوس، وليست حرية أجساد.

ثم قال مخاطبا من يحكي له:

لا تشتر العبد إلاّ والعصا معه ∴ إنَّ العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ!

ولقد ذكرت سابقا أنه يخاطب ويعاتب سيف الدولة، بهذه القصيدة، وعليه فكل خطاب في القصيدة – كما أرى– متوجه إلى سيف الدولة، وبخاصة عندما بدأ يحكي ما لاقاه من الدنيا وعجائبها.. ولفظة (العبد) المعرفة بالألف واللام يراد منها جنس العبد، وقد أظهر هذا المراد في الشطر الثاني حين قال: (إن العبيد).

ويُعدُّ الشطر الثاني تعليلا للشطر الأول، فالجملتان بينهما كمال اتصال، وكأنه قال : لا تشتري العبد إلا والعصا معه؛ لأن العبيد أنجاسٌ مناكيدُ، وخرج البيت في صورة النصيحة المقدمة لكل مشتر، لذلك شاع هذا المعنى في الآفاق وصار مثلا يضرب بين الناس، وقوله: (لا تشتري) يريد: إن لم تجد العصا فلا تشتري؛ لأنه سيرهقك، وسيعصيك، فالعبيد لا تستجيب بالحسنى، فإن وجدتَ العصا فاشتر، وقوله: (والعصا معه) يريد أن الأصل في سوق العبيد أن يباع العبد والعصا، فإن وجدت من يبيع العبيد دون العصيّ فلا تشتري منه، وكأن الجملة ترسم للقارئ صورة السوق الذي يباع فيه العبيد، فهناك تجار يبيعون العبيد فقط، وتجار يبيعون العبيد مع العصيّ التي يُؤدَّبون بها، وعلى المشتري أن يأخذ البضاعتين، العبد والعصا، ولا يكتف بواحدة، وهذا تصوير بالغ الإهانة والتحقير، وحتى لا تُنكر علي المتنبي هذه الإهانة البالغة فإنه علل لمعناه، وذكر للمخاطب حجته فقال: **(إن العبيد لأنجاس مناكيد)** ومعنى الأنجاس: الأقذار، ومعنى المناكيد:

المشائيم، قليلو الخير، وهذه المعاني لا تصلح تعليلا لشراء العصا مع العبد إلا إذا كانت القذارة قذارة نفوس، والشؤم شؤم نفوس، وهذه القذارات النفسية التي يترتب عليها التمرد والعصيان لا تتصلح إلا بالضرب والإهانة، ولا تستجيب للأوامر إلا بالخوف والترهيب، ولقد استقرت هذه المعاني في النفس العربية، بل في النفس البشرية(١). ثم قال:

ما كُنتُ أحْسَبُني أحْيَا إلى زَمَنٍ ∴ يسيءُ بي فيه عبد وهو محمود

ولم أقرأ في الشعر شعورا بالوجع، ولا إحساسًا بالإهانة مثل هذا البيت، ويذكرني هذا البيت بقول السيدة مريم سلام الله عليها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾(٢)، وشعور المتنبي بهذا الألم نابع من اعتزازه بنفسه، ومعرفته لقدره، فهو الشريف العلوي، وهو صاحب المنزلة التي لا ينكرها السادة، وبخاصة حبيبه سيف الدولة، والألم ليس نابعًا من الإساءة، وليس نابعا من إساءة العبد، ولكنه نابع من القهر الذي يشعر به لأنه مضطر إلى حمد عبد يُسيء إليه، فإذا قابلت الإساءة بالحمد فهذا كثير جدا، فإن كانت الإساءة من عبد، ثم وجدت نفسك مرغما على مدحه وحمده، وإظهار حبك وتعظيمك له فهذا فوق الطاقة، وقيل في رواية: (يسيء بي فيه كلب) وأرى أن كلمة (عبد) أليق بالسياق، لأن جملة (وهو محمود) لا تناسب لفظة (كلب) حيث تخرجها من إرادة التعجب إلى معنى السبّ، والمتنبي هنا لا يسبُّ العبد إنما يصور عجبه من وصوله إلى هذا

---

(١) حتى قيل : العبد يزجر بالعصا ... والحر تكفيه الملامة
وقيل: وإن الحر في الحالات حرّ ... وإن الذل يقرن بالعبيد
وقيل: إن العبيد إذا أذللتهم صلحوا ... على الهوان وإن أكرمتهم فسدوا
(٢) سورة مريم، الآية ٢٣.

الزمان، كما أن لفظة (عبد) أشد وضاعة –عند المتنبي– من كلمة (كلب)، وبخاصة بعد أن قال: لا تشترى العبد إلا والعصا معه.

وهذا البيت يذهب بكل ماقاله المتنبي من مدائح في كافور، لأنها مدائح قيلت اضطرارًا، والعجيب أن المتنبي لم يقل : يسيءُ بي فيه عبد وأنا أمدحه، أو: وأنا أحمده، بل قال : يسيء بي فيه عبد وهو محمود، وجملة (وهو محمود) جملة مُلبسة، لأنها جعلت العبد محمودا منه ومن غيره، وهذه سقطة شعرية أرى أنها ندّت عن المتنبي، ولو قال : يسيء بي وأنا أمدحه لقُبِل، لكن قوله: (وهو محمود) أشعرت بأن العبد محمود على كل لسان، وممدوح من كل شاعر، ولا شك أنه لم يرد ذلك، وإنما أراد أنه يمدحه مُكرها، ويُظهر حبه وفضله عليه في الوقت الذي يظهر فيه (العبد) كرهه وإساءته إليه، وهذا أمر شديد القسوة على النفوس الحرة، و(ما) في أول البيت لنفي الحسبان، وأُدخلت على الفعل الناقص (كنت) لتعميق النفي، واقتلاعه من جذوره، لعدم وروده على الخاطر ولو مرة واحدة، ويزيد هذا الأمر عمقًا إسناد الفعل (أحسب) إلى ياء المتكلم، حيث قال: (أحسبني) لتكون ياء المتكلم مفعولا به ظاهرا، ولو قال: ما كنت أحسب أن أحيا إلى زمن، وأضمر الياء، لما شعرت بهذا الألم، فالياء كشفت عن مقدار الوجع الذي أصاب شخصية المتنبي العالية المقام، من شخصية كافور التي يكفي في وصفها بأنها (العبد) كما أن تعدية الفعل (أحسب) إلى الياء أغنت عن (أن) واسمها، كما أن التعجب في (أحسبني) من ذاته التي قبلت هذا الأمر، ولو قال: (ما كنت أحسب أن أحيا) لكان التعجب من إساءة العبد وهو محمود، فالمتنبي كأنه غير مصدق ما حدث، غير مصدق أنه مدح من يسيء إليه، غير مصدق أنه ظل يمدحه رغم إساءته، وهذا قبول بالخنوع الذي يتعارض مع صفات الحر، لذلك قال : (ما كنت أحسبني) وكأنه مسه

شيء من سمات العبيد، وهو القبول بالإساءة والسخرية، وعدم إظهار الشكوى. ثم قال:

ولا تَوَهّمْتُ أنّ النّاسَ قَدْ فُقِدوا ∴ وَأنّ مِثْلَ أبي البَيْضاءِ مَوْجودُ

وهذا البيت معطوف على سابقه، والتقدير: ما كنت أحسبني ولا توهمت، فهذه عجائب الدنيا التي يحكي عنها، ومنها: أن الناس قد فقدوا، وكلمة (الناس) بديعة من بدائع المتنبي، لأنه يريد بها (الكرام السادة)، وهو لم يجد كراما ولا سادة، بل وجد عبيدا مسخرين، ولما كان الإنسان مخلوقا ليكون سيدا شريفا، وكان ما دونه مسخرا له، فإنه لم يجد هذا الجنس من المخلوقات، ولا ينبغي أن يقال لمخلوق إنه من الناس إلا إذا رفض الضيم، وأبى الذل، فإن قبله رفع من قائمة الناس وألحق بالمخلوقات التي سخرها الله للناس، ونفي التوهم درجة من درجات الخيال، والشيء الذي لم يتوهمه هو فقد الناس، ووجود شخص مثل كافور، وهذه صورة تقابلية ترى فيها المحبوب مفقودا، والمكروه موجودا، لذلك غاب عن توهمه.

وهذه الجملة شديدة جدا علينا، لكن لعله أراد حاشية كافور من جنوده وخاصته، فلم يكن منهم إلا عبد، أو ابن عبد، أما الكرام فمصر تمتلىء بهم، وتراهم أينما حللت، وجملة (وأن مثل أبي البيضاء ..) معطوفة على جملة : ولا توهمت، والمعنى : ولا توهمت أن مثل أبي البيضاء موجود، وقوله (أبي البيضاء) كنية أراد بها التهكم بكافور، حيث عبر عنه بضد ما هو عليه، فلقد كان كافور أسود اللون، والعامة تسمي الأسود أبو البيضاء على طريق السخرية منه.

وحين تراجع هذه الصورة التي رسمها المتنبي تلحظ بساطتها الشديدة، ووضوحها الكبير رغم دلالتها العجيبة، وهذا العجب كامن في كلمتي (الناس – وموجود) فالمتنبي اقتنص كلمة (الناس) التي تعصرك ألما، لأنه حين أتى مصر لم يجد ناسا، ومقصده أنه اعتاد على أناس في عالمه، والناس

الذين يعرفهم هم الذين يأنفون من أن يسوسهم عبد، ويتحكم في رقابهم عبد، لكنه وجد الناس في مصر يرضون بذلك، ويهشون له ويبشون، لذلك نفى عنهم أن يكونوا ناسا، كما أنه وجد عبدا أسود يقود ويسود، ويأمر وينهى والناس طوع أمره، وهذا أعجب العجب. **ثم قال:**

وأن ذا الأسود المثقوب مشفره ∴ تُطيعُهُ ذي العَضَاريطُ الرّعاديد

والواو في أول البيت عاطفة على جملة التوهم، أي: ولا توهمت أن الأسود العظيم المشافر تطيعه العطاريد الرعاديد، واسم الإشارة (ذا) يُحضر هذا الأسود أمام عينك لتراه، حتى توقن بأن ما يصفه به صواب، فحين يقول لك: إنه أسود مثقوب المشافر فلا تظن أنه يبالغ، فإن تسرب إليك شك فانظر إليه، وهذا ما تفعله الإشارة بـ(ذا) فاسم الإشارة دعوة من الشاعر إلى القارئ كي ينظر، ويراجع هذه الصفات ويتأكد من صحتها، قبل أن يعددها واحدة واحدة، وأول الصفات أنه أسود، والسواد صفة غالبة في العبيد قديما، لكنه لم يُردها على الاستقلال، بل أراد أن يجمع معها أنه (المثقوب مشفره) وسمى الشفة مشفرا على سبيل الاستعارة، يريد أنها قبيحة، فالمشفر هي شفة البعير، وهي كبيرة وغليظة لتساعده على أكل الأشواك، فإذا أريد وصف إنسان بأنه غليظ الشفة قبيح الوجه استعير له لفظ المشافر من عالم الإبل، ثم زيد على ذلك فجعلت هذه المشافر مثقوبة، وكأنها تُربط برباط كالزمام؛ ليُوجَّه حيث يُؤمر، وبعد أن صوره لك، وجعلك تراه بعينيك أتي بجملة الخبر، وهي جملة فعلية مكونة من الفعل المضارع (تطيعه) واسم الإشارة المؤنث (ذي) وهو الفاعل، وجاء بالفاعل اسم إشارة لتعاود النظر إليه، ثم وضح لك أن هذه التي تطيع الأسود المثقوب مشفره عطاريد رعاديد، والعطاريد هم الأتباع الذين يخدمون الناس بطعام بطنهم، وهم السفلة والأرذال من الناس، أما الرعاديد فهم الجبناء، **والذي يلفتك هنا أمران:**

الأول: اسم الإشارة في الشطر الأول والثاني، حيث عمد المتنبي إلى إظهار كافور أمام الأعين لتراه كما يراه، وهذا ما يصنعه اسم الإشارة في الجملة، فاسم الإشارة يحول لك المعاني المجردة إلى صور لتراها شاخصة أمامك لتتأكد أن ما يرسمه الشاعر لا مبالغة فيه، فاستدعاك لتنظر إليه من خلال نظارة اسم الإشارة.

والأمر الآخر: أنه اختار اسم الإشارة (ذي) للمطيعين المستسلمين، واسم الإشارة (ذي) موضوع للمفردة المؤنثة، ولا يخفى عليك ما وراء ذلك من دلالات، وكأنهم نساء تابعات، همهم بطونهم، جبناء، وضع هنا من الصفات ما يتوافق مع كلمة (ذي) التي اختارها المتنبي ليصف بها العضاريط الرعاديد، ليصل في النهاية إلى أنه لم يتوهم أن هؤلاء السفلة الأرذال تطيع مثل هذا الأسود، حتى يجوز عليهم أمره، ويمضي عليهم حكمه، ويتبعونه اتباع الأذلاء. ثم قال:

جَوْعانُ يأكُلُ مِنْ زادي. وَيُمسِكني ∴ لكَيْ يُقالَ عَظيمُ القَدرِ مَقْصُودُ

وهذا البيت كما ترى قليل ماء الشعر، لأنه وصفٌ وتعليل لهذا الوصف، وهو أشبه بالنثر، وعلى كل حال فإن كلمة جوعان صفة مشبهة باسم الفاعل على وزن فعلان، تصاغ للدلالة على من اتصف بخلو بطنه من الطعام على وجه الثبوت، والمراد أنه مهما أكل فإنه لا يشبع، وهذا الوصف خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو جوعان، وليس المراد الجوع الحقيقي، وإنما أراد اللؤم والبخل، فيقال للغني البخيل: إنه جوعان، لأنه لا يعطي مما في يده، وجملة (يأكل من زادي) برهان على وصفه بالجوع، فالأمير الذي يأكل من زاد ضيفه جوعان، وقد يكون مراده من أنه يأكل من زاده: أنه يطالبه بالمدح بشعره، ولا يكافئه على ذلك، أو أن المتنبي كان قد أحضر معه بعض الهدايا عند قدومه عليه، أو أنه ترك المتنبي ينفق على

نفسه وهو قائم في ضيافته، وهذا من أعجب الأمور، وكل ذلك داخل في دلالة جملة : يأكل من زادي.

أما جملة (ويمسكني ... إلخ) فهي الطامة الكبرى التي فجرت بركان الغضب في قلب الشاعر، فالشعراء كالصقور، لا يستطيعون الصبر على الحبس، فإن حبسوا ماتوا من الغيظ، ولقد رأيتُ في هذه الجملة بداية البركان الذي تفجر، وراح يكيل له الهجاء، ويبحث عن السقطات ليلحقها به، وما كل ذلك إلا بسبب (ويمسكني) إذ كيف لعاقل أن يحبس شاعرا، ويمنعه من الارتحال، والشعراء قد يتحملون على كره منع العطاء، لكنهم لا يتحملون المنع من الانطلاق أينما شاءوا، ولقد كان المتنبي أثيرا عند سيف الدوله، لكنه حين غضب في مجلسه، وقام منصرفا إلى السفر لم يمنعه سيف الدولة، بل تركه يمضي حتى تهدأ ثورته ثم يعود، ولو حبسه سيف الدولة لهجاه، ومسح بهجائه كل ما قاله فيه من مدائح، وهذا أمر ينبغي التأكيد عليه، أن المنع من السفر، وتحديد الإقامة، وحبس النفوس يفجر طاقات الغضب التي لا تبقى على مودة، ولا تستبقي معروفا.

والعجيب أن (كافور) استبقاه، ومنعه لا ليمدحه، فهو يعلم أن المتنبي لن يمدحه بعد أن منعه العطاء، وحجزه عن الترحال، لكنه أمسكه كي يتحدث الناس أن أبا الطيب قائم عند الوالي، فيشاع أن الوالي عظيم القدر، ويقال إن الوالي مقصود من كبار الشعراء مثل المتنبي، ويفخر بين حاشيته الخاصة بأن المتنبي قائم عنده، وقد جاءه وترك سيف الدوله !!، وهذا المعنى يصور طبائع هذه النفوس التي اغتصبت الإمارة دون وجه حق، وأنها نفوس عطشى وجوعى للمديح، وأنها تتلمس الذكر الحسن، حتى وإن كان كذبا، وتسعى بكل طاقتها إلى تحسين صورتها في أعين الناس زورا وبهتانا، وهكذا كل مغتصب لحق غيره. ثم قال:

إنَّ أمـراً أمَـةٌ حُبْلَـى تُـدَبِّرُهُ ∴ لُمستَضَـامٌ سَـخِينُ العَينِ مَفئُـودُ

وهذا البيت عالي الصنعة، محكم النسج، كثير ماء الشعر، يلخص فيه المتنبي المشكلة التي عاناها ويعانيها غيره، ويضع يده على الداء الدويّ، الذي أعيا البلاد منذ القدم، وهو أن أمرها تُدبّره أَمَةٌ حُبلى، ومن أراد دواء لهذا الداء الدويّ فليولّ أمر البلاد الفحول الخيار الأكارم، والمتنبي بهذا البيت يجعل المشكلة عامة، وكأن القضية ليست خاصة به، إنما تشمل البلاد وصلاح أحوالها، وكلمة (أمرًا) التي جعلها المتنبي رأس البيت، وبنى البيت عليها تعنى جماع كل شيء، تعني صلاح البلاد والعباد، وإذا رأيت بلدا يسقط فاعلم أن الولاية فيه وضعت في غير أهلها، وإذا رأيت بلدًا ينهض فاعلم أن الأمر فيه قد وسّد إلى أهله، هذه قضية يعرفها باعة الخُضَر في الأسواق، ولا تحتاج إلى تفكير، لكنه العناد الذي ولَّد الكفر.

المهم أن جملة (إن أمرا ... إلخ) تعليل لكل ما مضى، ويجب عليك عند قراءة البيت، أن تقف على كلمة (أمرًا) بالتنوين، ليظل السامع منتظرا الخبر، ولا يلتبس الخبر بالإضافة، كما أن كلمة (أمرًا) نكرة مقصودة، فهو يريد أمر مصر وصلاح أمر مصر، لكن المشكلة أن أمر مصر قد أسند إلى (أَمَةٍ حُبلى) لتدبّره، والكلام حتى هنا لم يتم، وكأن المتنبي يريدك أن تقف قليلا على هذا المبتدأ الذي تكوّن من خمسة ألفاظ، لأنه مبتدأ يحتاج إلى عناية وتوقف، وراجع هذا التوكيد الذي سبق المبتدأ لترى الكلام وقد كثر عليك، وزادت مفرداته، (أمرا، أمة، حبلى، تدبره) وكأنه يطيل عليك المبتدأ، لأنك ستعرف الخبر إذا تدبرت هذه الكلمات، وأعدت قراءة مكوناته، أرأيت أمةً حبلى تدبّر أمر بلد من قبل ؟!

تخيل هذا، ثم انظر في عاقبتة، فلن تجد إلا الخراب والضياع ... إلخ، وهكذا تجد المتنبي يأسرك ببناء هذا البيت، واصطفاء مكوناته، وبخاصة في اختيار كلمة (أمرا) لتكون المبتدأ، ثم يأتيك بالخبر، بعد أن يجهدك في انتظاره، فيقول (لمستضام) وهي مستفعل من الضيم، بمعنى أنه مستذل

مقهور، و(سخين العين) بمعنى أن عينه لا تكف عن البكاء، فهي ملازمة للدموع، أما كلمة (مفئود) فتعني أنه مصاب في فؤاده، وهذه ثلاثة أخبار للمبتدأ، (أمرًا).

وهذه الأخبار قد تكون للأمر، ويقصد به أمر البلاد، وشؤونها، وقد يقصد به أمر الوافدين عليها، ويكون الكلام على حذف المضاف إليه، والمعنى: إن أمرا تدبره أمة حبلى لمستضام وافده، وذليل جاره، ومفئود ضيفه، وهذه كلها أوصاف لنفسه لأنه نزل ضيفا على أمير ليس من الرجال، بل هو أمة حبلى .. ثم قال:

وَيَلُمَّها خُطَّةً وَيلُمِّ قَابِلِهَا ∴ لِمثلِها خُلِقَ المَهرِيَّةُ القُودُ(١)

وهذا البيت كأنه تندم من المتنبي، ومعاتبة لنفسه، ومراجعة لما أخطأ فيه، وكأنه يقول: كيف قبلت بهذا الحال؟ ! وكيف رضيت لنفسي بأن أحملها على الحضور إلى هذا العبد الخصي الأسود، لقد خانني التفكير، وأخطأت الحسابات، وتركت الكريم سيف الدولة، وأتيت إلى من لا يعرف قدري ومنزلتي، وعليه فالواجب الفرار من هذا الحال، وبدأ البيت بهذه الكلمة (ويلمِّها)، وهي كلمة يراد بها التعجب وإظهار الدهشة، **(وأصلها: ويلٌ لأمها، فلما كثر استعمالها خففت، وحذفت اللام والهمزة ، وجُعلت الكلمتان كلمة واحدة)**(٢) وهي من الكلمات التي لازمت اللسان العربي عند التعجب والدهشة، مثل: لله درك، ولله أبوك، وتربت يداك، ونحو ذلك، لكن الكلمة التي معنا تقال عند التحسر، وإظهار العجب مع الحسرة من الأحداث ومن الذين يرضون بها، وأطلق المتنبي على قصته لفظ (خطة) ونصبها في

---

(١) يقول الاستراباذي في شرح الشافية: (ويلمه: اصله للدعاء عليه ثم استعمل في التعجب مثل قاتله الله) شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي: ٢/٢٦٤.

(٢) معجز أحمد لأبي العلاء المعري ١/٤٠٩.

العبارة على التمييز، لأنه بدأ بالضمير المجهول في (ويلمها) وهذا الضمير يحتاج إلى ما يوضحه، فقال: (خطة) ليشير إلى وجود تدبير، لكنه لم يكن منه، وإنما هو تدبير عُرض عليه فقبله، ولذلك أعاد العبارة فقال: (ويلم قابلها).

وعليه فالدهشة كانت من التخطيط، ومن قبوله هذا التخطيط، وتقول الخطة أنه إذا حضر إلى كافور فمدحه ولازمه، كما كان يفعل مع سيف الدولة، فإنه سيجعله أميرا على إحدى الولايات، ويغدق عليه من العطايا، تلك هي الخطة، وتلك قصته وحاله وهكذا كان الظن والتدبير، وكل ذلك لم يتم، فلقد مدح وبالغ في المديح، لكنه قوبل بالبخل، والمنع من السفر، وكان القرار هو الفرار على مهرية، والمهرية هي: الإبل المنسوبة إلى بلدة في اليمن تسمى (مهرة)، وهي إبل (قود) أي: طويلة الأعناق، وطول العنق في الإبل يشير إلى قدرتها على التقاط الطعام من الشجر العالي، ورؤية المساحات الواسعة من الصحراء، فهي الأنسب للترحال، ولقد حان وقتها لتنقلني سريعًا من هنا، لأنها ما خلقت إلا لمثل هذه المواقف، كيما ينجو عليها كل أبيّ، يأنف من هذا الحال، وكلمة (لمثلها) لا يراد بها الشبيه والمثل، وإنما تراد هي، والمعنى: لهذه الأحوال خلقت المهرية القود.

ولقد تحدث عبد القاهر عن التعبير بالمثل ويراد الشيء نفسه، فمثل فلان تعني فلان، ومثل الناقة يراد بها الناقة، وليس غيرها، كما ذكر أن كلمة (مثل وغير) يتقدمان في الذكر، وهذا (شيء مركوز في الطباع، وهو جار في عادة كل قوم. فأنت الآن إذا تصفّحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدّمان أبدا على الفعل إذا نحي بهما هذا النّحو الذي ذكرت لك)[1] ثم قال:

وَعِنْدَها لَذّ طَعْمَ المَوْتِ شَارِبُهُ ∴ إنّ المَنِيّــةَ عِنْــدَ الــذّلّ قِنْديــدُ

(١) ينظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ص ٩٥

و(عندها) يريد عند الذل والامتهان، وعند الخطة التي تحملتُها، ولا ينبغي لمثلي أن يتحملها، عند كل ذلك يكون الموت لذيذا، فالهاء في (عندها) تعود إلى ما ذكره في البيت السابق من خطة الذل والخسف، والبداية بهذا الظرف المكاني يشوق إلى ما بعده من معنى، والتقدير (لذ طعم الموت عند حصول الذل والخسف)، وقد أعاد هذا الظرف مع التصريح بالمراد من الهاء في آخر البيت حيث قال: **(إن المنية عند الذل قنديد)** فالمعنى واحد في الشطرين، وراجع هذا بعد أن تراجع الكلمات حيث تجد الكلمات في الشطر الثاني تنوب عن الكلمات في الشطر الأول، وكأنه يعيد على مسامعك المعنى مرتين، في ثوبين مختلفين، ففي الشطر الأول يكون طعم الموت لذيذا لشاربه عند الذل، وفي الشطر الثاني تكون المنية عند الذل كالقنديد، أي: كالخمر اللذيذ، وهكذا يستطيع المتنبي أن يعطيك المعنى في صورتين، يخيل إليك أنهما مختلفان، لكنهما عند التحقيق تجدهما واحدا، ولذلك فصل بينهما لأن الجملة الثانية توكيد للأولى، وجملة : إن المنية ... تطلق المعنى من دائرته الضيقة، وتجعله معنى إنسانيا ،فالقضية تشمل كل من هم على شاكلته، وهذا فيه من الإيجاز الكثير، لأنه أراد : وعند الذل يفضل الأباة طعم الموت، ويتلذذون به، وهي دعوة لكل أبي كريم ألا يرضخ لهذا الهوان، وأن يرفض الذل والانكسار، ولو أدى الأمر إلى الموت، فعندها سيكون طعم الموت ألذ من طعم الذل، لأن المنية عند الذل ألذ من الخمر، وهذا الشطر يعد من الحكم التي ينبغي أن تحفظ وتسير بها الركبان، لأنها حكمة تربي الرجال، وتحفظ للنفوس كرامتها ... **ثم قال:**

مَن عَلَّمَ الأَسوَدَ المَخصِيَّ مَكرُمَةً ∴ أَقَومُهُ البيضُ أَم آبائُهُ الصيدُ

أم أذْنُه في يد النَّخَّاس دامية ∴ أم قدرُه وهو بالفَلْسين مردودُ؟

لقد بني الشاعر هذين البيتين على الاستفهام بـ (مَنْ) وهي اسم يدل على مسمى خاص بها، وبكون المسؤل عنه بها إنسانا غالبا ،وأخذ يردد جملة

(من علم الأسود) عن طريق أداة العطف (أم) لأنها تحمل عند تكراراها معنى (من علمه؟) وكأنه يقول: دلوني على الذي علم هذا الأسود المخصي مكرمة إن كان قد تعلم شيئا، أهو كذا أم كذا أم كذا، والاستفهام في كل ذلك ليس مقصودا على الحقيقة، إنما أراد عدم وجود معلم لهذا الأسود المخصي، فمن أين يأتي التعليم وليس هناك من يُعلم؟

فالمراد هو: لم يعلمه أحدٌ المكارم، ولاحظ هذا الوصف الذي وصفه به (الأسود المخصي) وهو وصف يتعارض مع التعليم، فمن كان على هذه الشاكلة في عرف المتنبي لا يصلح معه تعليم أو تأديب، ثم إن التعليم يكون من آباء أكارم أماجد، وهذا لا يوجد له آباء كرام، ولا قوم أماجد ذوو كبرياء، فمن أين يتعلم؟.

والبيت الثاني: عجيب، لأنه عطف ب(أم) (الأذن، والقَدْر) فقال: أم أذنه، ثم: أم قدره، وهذا مما لا يستقيم عطفه على: أقومه السود أم آبائه البيض، لكنه أدخل هذين الأمرين في أسلوبه الاستفهامي، ليذهب في المعنى أقصى درجات نفيه، وكل ذلك دليل على أنه لا كرامة له، ولا شرف له، ولا نسب طيبًا له، لأنه أراد أن ينفي عنه أيضا التعليم عن طريق العقاب والزجر وشد الأذن من النخاس [1] وتكرار البيع والشراء بأبخس الأثمان، حتى إن ثمنه لم يزد على فلسين، بل إن المشتري أعاده واسترد الفلسين لأنهما عنده أغلى من هذا العبد، وكل هذه المعاني مقامع من حديد يتنزل بها على هذا العبد، وكأنه يُفرغ ما في جوفه من غضب، بهذه الطعنات النجلاء التي تملأ قلبه.

---

(١) (النخاس هو تاجر الرقيق، و(الفلس) قطعة نقود من النحاس، قليلة القيمة حيث يعد الدينار مساويا لألف فلس.

كما أن هذا الكلام يقطر سخرية واستهزاء، ويخر إهانة وتنكيلا، وكم كنت أود أن يترفع المتنبي عن مثل هذا الأسلوب، ويعلو بهجائه إلى مستوى يليق به هو، فالهجاء قبل أن يحلَّ على كافور بالمطارق، والقارعات، فهو منسوب أيضا إلى المتنبي، وكلما ترفع الشاعر عن هذا الأسلوب المنحط علا قدره في نظر القارئ، لكن الذي يظهر أن المتنبي أطلق للسانه العنان بعد أن أوجعه المنع من السفر، وبعد أن مُنع العطاء، وبعد أن تذكر أيامه مع سيف الدولة، كل هذا جعله لا يتورع عن قذف أمير مصر بكل ما يتورع اللسان عن ذكره، ولو راجعت هذه الصفات التي أراد المتنبي أن يُلحقها بالأمير، وأخرجها في صورة المستفهم لوجدتها على النحو الأتي:

وصفه (بالأسود المخصي)

وأنه (من قوم سوء لا كرامة لهم ولا شرف)

وأن (آباءه من الرعاع وليسوا من الملوك الأماجد)

وأنه (بيع في الأسواق أكثر من مرة)

(وكان المشترون يردونه ويسترجعون نقودهم رغم قلتها)

وأخرج المتنبي هذه الصفات كلها في أسلوب استفهامي يراد به النفي، لكنه في الواقع يلوم نفسه على الذهاب إلى من هذه صفاته لطلب نواله. ثم قال:

أَوْلَى اللِّئَامِ كُوَيْفِيرٌ بِمَعْذِرَةٍ ∴ في كلّ لُؤمٍ، وَبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ

والترتيب الأصلي للجملة الأولى هو: أولى اللئام بمعذرة في كل لؤم كويفير، فأولى مبتدأ، والخبر: كويفير، وأسرع الشاعر بالخبر ليضع هذين اللفظين بجوار بعضهما، وهما (اللئام كويفير) لتكون كلمة (اللئام) مربوطة بكلمة (كويفير) في الصورة كما هي مربوطة في الخبرية، وأزاح المتعلقات إلى ما بعد المبتدأ والخبر، مع أن المبتدأ لا يتم معناه إلا بكلمة (بمعذرة) لأنها من حقيقة المبتدأ، لكن المتنبي أخرها، حتى لا يظن القارئ أنه يلتمس له العذر، لأن البيت ليس التماسا للعذر، بل هو إبلاغ في الهجاء، كما أن البيت يرسم

مشهدًا في خلفيته لا بد أن نستحضرها، هذه الخلفية تقول: إن الناس صاروا يعذرون اللئام، ويلتمسون للأندال الأسباب التي تتجيهم من اللوم، فقال لهم المتنبي: إن أولى الناس بالتماس العذر له هو كافور، وهذا كلام ظاهره الشفقة، وباطنة المبالغة في الذم، لأن العذر الذي يلتمسه له يعود إلى خسته، وخبث أصله، وشرور نفسه، وحين يكون المنبتُ خسيسا، والأصل وضيعا، والجذور عفنه فلا لوم على الفروع اللئيمة، لأن الشيء من جنسه لا يستغرب، ولا يلام من وجد نفسه خسيسا من قوم مجبولون على الخسة، ولا عتب على من رضع الدناءة فصار دنيئا، وكلمة (كويفير) تصغير لكلمة (كافور) وهي من مكملات التحقير، ومستتبعات الهجاء، وقوله: (في كل لؤم) يشعرك بكثرة مرات لؤمه، واحتياجه في كل مرة إلى عذر، وينبغي على الناس الذين يعرفون أصله أن يلتمسوا له العذر، فالرجل لا ذنب له في لؤمه، لكن ينبغي أن يعلم أننا – حتى ونحن نعذره – سنوبخه، لأن بعض العذر تفنيد، والتفنيد توبيخ، وتقريع، وهجو صريح، وجاء في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [آية ٩٤] **يقول الزمخشري:(التفنيد : النسبة إلى الفند، وهو الخرف وإنكار العقل من هرم.... والمعنى: لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى)**[١]. وعليه فإن المراد أننا ونحن نلتمس له العذر، فلم يمنعنا هذا من توبيخه، لأن بعض العذر توبيخ . ثم قال:

وَذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ ∴ عَنِ الجَمِيلِ فَكَيفَ الخِصيَةُ السُّودُ؟!

(وذاك) أي كل ما مضى في القصيدة، وكل ما كتبته في الأبيات التى رأيتها إنما هي عتاب، عتاب للأحبة، عتاب لسيف الدولة، الذي تركني أمضي ولم يبادر إلى مصالحتي، وعبر عن (سيف الدولة) بالفحول البيض، ليقابله

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/٥٠٣.

(بكافور) الذي عبر عنه (بالخصية السود)، وليس البيت تعريضا كما قال الشراح، إنما هو عتاب رقيق لحبيبه الذي بدأ القصيدة بذكره، وختمها بذكره، فحين بدأ قال:

أمّـا الأحِبّـةُ فالبَيْـداءُ دونَهُـمُ ∴ فَلَيـتَ دونَـكَ بِيـداً دونَهَـا بِيـدُ

وحين ختم قال:

وَذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ ∴ عَنِ الجَمِيلِ فَكَيفَ الخِصيَةُ السُّودُ؟!

ومن أجل هؤلاء الأحبة، ومن أجل العتاب عليهم كانت القصيدة، وفي القصيدة ذكر أسباب العتاب، وهو أنه أهين، ومنع عنه العطاء، ومنع من السفر، وما كان لسيف الدولة أن يتركه ليقابل عجائب الدنيا هذه.

المهم أن كلمة (ذاك) في أول البيت تلخص لك القضية، وتوجز لك سبب هذا الهجوم على كافور، فالأمر لا يعدو إلا أن يكون عتابا شديدا لحبيبه سيف الدولة، الذي وصفه هنا بالعجز عن الجميل، والجميل الذي يبتغيه المتنبي يشمل كل شيء، بداية من إنزاله منزلته التي تليق به، ومن الإغداق عليه بكل ما يستحق من عطاء، ومن الذب عنه، وحمايته من المتربصين به من أنداده، وإذا عجز الكرام عن ذلك، فلا تنتظر من اللئام صنع مالم يقدر عليه الكرام.

ولقد كان ختام القصيدة بالخصية السود شديدا، لأن هذا الختام التصق بكافور، حتى صار الناس إذا سمعوا: الخصية السود تذكروا كافور ،وهذا من عجائب شعر المتنبي.... هذا وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الذوقية البلاغية مع القصيدة الدالية للمتنبي في كافور الإخشيدي وحاشيته، يمكنني أن أخلص إلى النتائج الآتية:

- أن تحليل النصوص الشعرية مرتبط ارتباطًا وثيقا بمعرفة البيئة التي نبتت فيها هذه القصيدة؛لأن كل لفظة، وكل حركة في النص الشعري، هي وليدة النفوس المجتمعة في الزمان الخاص، والمكان الخاص، والأحوال الخاصة...، وفصل القصيدة عن هذه الأحوال يُعدّ قتلًا للمعاني التي حملتها، وتشويهًا للدلالات التي تسربت في أعطافها.
- إن تحليل النصوص لون من الإبداع الذي يتطلب مشاركة الشاعر في كل شيء، مشاركته في تجربته، في زمانه ومكانه، في أحواله التي ألمت به حتى تستطيع أن تقتحم حماه، وتستخلص مراده من كلامه، وللشعراء حمى لا يسمحون لأحد بالاقتراب منه إلا لمن أذنوا له، ولا يأذنون إلا لمن عاش معهم، واستأذن منهم، وسمع شكواهم، والتمس لهم الأعذار فيما قالوه، وعندها يألفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، وعندها فقط يسمحون له أن يسكن نفوسهم ليتعرف على مرادهم، وكل ذلك يكون بمداومة قراءة شعرهم، والتغني به تغني المحب العاشق.
- على الرغم من أن الصراع في مصرنا قديم جديد، فمازالت مصر تزخر بالخير، وخيرها – بفضل الله لا ينفد،ومازالت العناقيد تنير بحبات العنب التي تحتاج إلى يقظة الحراس حتى لا تفني. ولا شك أن هذه الصورة التمثيلية في بيت (نامت نواطير مصر...) صورة متجددة في مصر، ليس من زمان المتنبي فقط، بل من عهد

الفراعين الأوائل، وكأنها قدر كتب على هذه البلاد، فالخير عميم، والثعالب دائما متربصة بها.

وكل ما كتبته في الأبيات التى رأيتها إنما هي عتاب، عتاب للأحبة، عتاب لسيف الدولة، الذي تركني أمضي ولم يبادر إلى مصالحتي، وعبر عن (سيف الدولة) بالفحول البيض، ليقابله (بكافور) الذي عبر عنه (بالخصية السود)، وليس البيت تعريضا كما قال الشراح، إنما هو عتاب رقيق لحبيبه الذي بدأ القصيدة بذكره، وختمها بذكره، فحين بدأ قال:

أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دونَهُمُ ∴ فَلَيتَ دونَكَ بِيداً دونَهَا بِيدُ

وحين ختم قال:

وَذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ ∴ عَنِ الجَمِيلِ فَكَيفَ الخِصيَةُ السُّودُ؟!

- ومن أجل هؤلاء الأحبة، ومن أجل العتاب عليهم كانت القصيدة، وفي القصيدة ذكر أسباب العتاب، وهو أنه أهين، ومنع عنه العطاء، ومنع من السفر، وما كان لسيف الدولة أن يتركه ليقابل عجائب الدنيا هذه ...

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أد. سعيد جمعة

أهم مصادر البحث ومراجعه:

- **أساس البلاغة للزمخشري**، دار صادر بيروت ١٣٩٩هـ.
- **أسرار البلاغة لعبد القاهر**، قراءة وتعليق الشيخ محمود شاكر، طبع الخانجي بالقاهرة.
- **الأعلام، خير الدين الزركلي**، دار العلم للملايين، ببيروت، لبنان.
- **البيان والتبيين للجاحظ**، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي**، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي ١٩٨٧م.
- **الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني**، تح/محمد علي النجار، الهيئة العامة للكتاب.
- **دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني**، أبو فهر محمود شاكر مكتبة الخاجي القاهرة
- **شرح ديوان المتنبي**، مرتبًا على القوافي ترتيبًا ألفبائيًّا، صنعة محمد فوزي حمزة، مكتبة الآداب سنة ٢٠١٨م.
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني**، تح/الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- **العين للخليل بن أحمد الفراهيدي**. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ط١ ج٥ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت – ١٤٠٨هـ.
- **الكشاف للزمخشري**، دار التراث العربي.
- **لسان العرب لابن منظور**، تح: عبدالله الكبير وزميليه، طبعة دار المعارف، مصر.

- **معجز أحمد (شرح لديوان المتنبي) لأحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، التنوخي (المتوفى: ٤٤٩هـ).**
- **النظام في شرح شعر المتنبي لابن المستوفي:** ٢/ ٣٤ مركز الملك فيصل للبحوث د/ خلف النعمان.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين ابن الأثير**، تح: طه الزاوي ومحمود الطناحي، طبع المكتبة العلمية بيروت.

محتويات البحث

الموضوع	صفحة
ملخص البحث :.....	٥٥٠
المقدمة :.....	٥٥٤
المبحث الأول [تاريخ النص وباعث إبداعه]	٥٥٥-٥٦٢
أولاً: تاريخ النص وتوثيقه :.....	٥٥٥
ثانيًا: الباعث على الإبداع :.....	٥٥٩
ثالثًا: الغرض من النص :.....	٥٦١
المبحث الثاني [تحليل النص فنيًّا وبلاغيًّا]	٥٦٣-٦٠٥
الخاتمة :.....	٦٠٦
المصادر والمراجع :.....	٦٠٨
فهرس الموضوعات :.....	٦١٠